لجنة التأليف والترجمة والنشر

هرمن ودروتيه

تأليف

جوته

نقلها عن الألمانية

محمد عوض محمد

مطبعة فاروق ٣٨ شارع المدابغ مصر

لجنة التأليف والترجمة والنشر

هرمن ودروتيه

Hermann und Dorothea

....

للشاعر الكبير

يوهان ولفجانج فون جوته

GOETHE

....

نقلها عن الألمانية

محمد عوض محمد

....

ومقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور طه حسين

....

طبع بالقاهرة

بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدابغ

١٩٣٣

مقـــــدمة

أتيح لى منذ أكثر من عشر سنين أن أقدم الى قراء العربية فى الشرق جوته حين قدمت اليهم ترجمة صديقى الزيات لآلام فرتر. وأتيح لى بعد ذلك بأعوام أن أتحدث الى قراء اللغة العربية فى الشرق عن جوته مرة أخرى حين قدمت اليهم ترجمة صديقى عوض لقصة فاوست. ويتاح لى اليوم أن أتحدث الى قراء العربية فى الشرق مرة ثالثة عن جوته وأنا أقدم اليهم ترجمة صديقى عوض لهذه الآية الخالدة من آيات جوته وهى قصة «هرمن ودروتيه» وأنا أكتب هذا الفصل وفى نفسى عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملآنها بالرضى والابتهاج: احداهما عاطفة الأثرة التى يمقتها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائما والتى لا أتحرج من أن أقبلها الآن وأستعذب الشعور بها لحظات قصارا لأنى انسان أجد ما يجده الناس من هذه العواطف التى تنشأ عن الضعف فتملأ النفس غرورا وتبعث فيها الحاجة الى الفخر. ومالى لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة الى الفخر. وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر، أن يختصك الله بهذه النعمة.

نعمة التعريف بجوته وتقديمه وتقديم شيء من آثاره الخالدة الى أجيال الشرق العربي على اختلافها .

لقد كنت ومازلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف العظيم الى أهل الشرق انى أستقبله فى دارى وأقدم اليه من ألوان التضييف والاكرام ما أقدر عليه وما هو أهل لأضعافه . وأى شرف أحسن فى النفس وقعاً وأدعى الى الفخر والكبرياء من استقبال هذا الرجل العظيم وتقديمه الى الشرقيين بل تقديم الشرقيين اليه ولاسيما بعد أن مضت الأعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته رجلا انسانيا عالميا فوق الفرد وفوق الأمة الألمانية التى أنجبته وفوق العصر الذى عاش فيه بل فوق العصور جميعا . ويزيد هذه العاطفة فى نفسى قوة وبها استئثارا انى لم أكد أقدم جوته الى الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويلتمسون عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور : فلم تكد تظهر آلام فرتر وتذيع فى الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار هذا الرجل العظيم . فظهرت لهم قصة فاوست فاذاهم يجدون فيها مزاجاً قيما بديعاً من الأدب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا ، واذا هم يقرأون ويدرسون ويستزيدون واذا صديقى عوض يلبى هذا الدعاء ويستجيب لهذا النداء فيترجم لهم هذه الآية التى أقدمها الى القراء اليوم وهى قصة « هرمن ودروتيه » .

هذه احدى العاطفتين اللتين أشعر بهما وأنا أكتب هـــذا الفصل . فأما العاطفة الأخرى فقد تحدثت عنها وأنا اتحـدث عن العاطفة الأولى . ذلك انى أشعر بشىء من الايثار وحب الخـير للناس جميعاً وأشعر بشىء من الغبطة حين أراهم يظفرون بهذا الخير الممتاز الذى يهديه اليهم الأدباء والعلماء من حين الى حين فيرفهون عليهم ويريحونهم ساعات أو أياماً من هـذا العناء الطويل الثقيل الجاف الخشن : عناء الحياة .

ذلك انى لم أقرأ كتاباً يعجبنى ولم أستمتع بأثر من الآثار الأدبية الرائعة إلا ازددت اعجابا بهذا التشبيه الشائع الذى يصور الحياة كأنها صحراء عريضة مقفرة ، محرقة الشمس غليظة الأرض ، مضطربة الريح كثيرة الرمال ، ندفع فيها دفعاً لا قبل لنا بمقاومته فنلقى فيها الأهوال والخطوب ولكن الأدب والفن والفلسفة تتيح لنا من حين الى حين أن نستريح من هـذا الجهـد المضنى حين نلقى فى بعض الطريق وسط هـذه الصحراء المهلكة واحـة نضرة ، فيها الشجر والزهر ، والروض والماء العذب ، والنسيم الحلو العليل .

فهل يستطيع الناس أن يشكروا للشعراء والكتاب والفنيين والفلاسفة مايسدون اليهم من نعمة ومايقدمون اليهم من معروف حين ينشئون لهم هذه الوحات التى يطمئنون فيها ويجدون فيها

نشاطهم ويذوقون من نعميها وبهجتها ولذتها مايعينهم على المضى فى سفرهم الطويل الشاق؟وهل يستطيع الشرقيون أن يشكروا لهؤلاء الأدباء الذين يترجمون لهم آيات الأدب والفن والفلسفة فيتيحون لهم من النعمة ما أتيح للأمم التى نبغ فيها عظماء الرجال وينسون أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقنعون بمكان المترجم . الذى ليس هو بالقارىء المستريح ولا المنتج النابغة ، ولكنه صلة بين الرجلين ؛ لاحظ له من راحة الأول ولاحظ له من مجد الثانى وانما هو خادم مخلص مؤثر أمين يرفع القارىء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله؛ ويشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقا جديدة الى عقول الناس وقلوبهم . ويتيح لهم بسط سلطانهم الخير على مختلف البيئات والأجيال .

هذه منزلة المترجم بين المنتجين والمستهلكين فى الفن والأدب والفلسفة كما يقول أصحاب الاقتصاد ؛ يراها الناس يسيرة وأراها عظيمة جليلة الخطر وحسبك انها هى التى تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب فتزيل ما بينهم من الفروق ، وتدنى بعضهم من بعض ، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذى يقوم على رقى العقل والخلق والشعور وحب الخير والاخلاص فى طلب السلام . فلنعرف لهم ذلك على أقل تقدير اذا لم نستطع أن نجزيهم بخير منه على مايسدون الى الافراد والجماعات من مأثرة ومايهدون اليهم من جميل .

* * *

فرغ جوته فى أواسط سنة ١٧٩٦ من قصته البديعة «ولهلم ميستر» وأرسل آخر جزء من أجزائها الى صديقه شيلر وأعلن اليه فى كتاب أرسله مع هذا الجزء انه يريد أن يستريح من العناء الذى لقيه فى وضع هذه القصة بوضع قصة أخرى غرامية ابطالها من أهل المدن. وكان كل شيء حول جوته يدفعه الى وضع هذه القصة والى وضعها على هذا النحو الذى سيراه القراء حين يقرأون هذه الترجمة التى أقدمها اليهم.

كانت الثورة الفرنسية قد غيرت نظام الطبقات التى تتألف منها الجماعة فازالت الفروق السياسية والاجتماعية وسوت بين الناس فى الحقوق والواجبات ورفعت من شأن الطبقات الوسطى من أهل المدن لأن هذه الطبقات كانت راقية مهيأة للنهوض باعباء الحياة العامة واحتمال تبعاتها والاستمتاع بما فيها من منفعة وقوة وسلطان.

ازالت الثورة الفرنسية سلطان الاشراف ولكنها لم تنقله الى الطبقات الدنيا لأن هذه الطبقات لم تكن مهيأة للنهوض به فاكتفت بنقله الى الطبقات الوسطى؛ وتركت للاشتراكية التمهيد لسيادة العمال ومن اليهم فكان الشعور فى أوربا كلها وفى فرنسا وجاراتها خاصة قويا لأن عصر السيادة والعزة للطبقات الوسطى قد أظل

الانسانية فلا غرابة فى أن تنبعث الحياة القوية الخصبة فى نفوس هذه الطبقات وفى ان تضطر الفلاسفة والأدباء الى العناية بها والتفكير فيها ولا غرابة فى أن يفكر جوته فى أن يتخذ منها ابطالا لقصصه وآثاره المختلفة .

وكان الشاعر الألمانى فوس قد وضع قصة شعرية وصف فيها الحب ونشأته بين المحبين وتدانى هذين المحبين حتى تكون الخطبة ثم يكون الزواج وما يحيط بهذا كله من لذة وبهجة ومن ألم وحزن ثم من رضى وابتهاج . وكان عنوان هذه القصة « لويز » وكان الألمانيون قد فتنوا بها حين ظهرت سنة ١٧٨٤ . وكان جوت نفسه من أشد الناس حباً لها وافتتاناً بها . وأنت تعلم أن من أخص خصال الشاعر وأقواها وأشدها تأثيراً فى حياته الفنية أنه لا يكاد يعجب بأثر من الآثار الأدبية حتى يود لو استطاع أن يحاكيه وينشىء مثله . وكان جوت كما تعرف مشغوفاً بالأدب اليونانى وبالقصص والتمثيل منه خاصة ، وكان شديد الحرص على أن يحاكى هذا الأدب ويحتذيه وينشىء مثله . وكان لا يتهيب شعراء التمثيل اليونانيين ولكنه كان يكبر هوميروس ويخافه ولا يكاد يحدث نفسه بالطمع فى محاكاته أو مجاراته . ولكن عالماً ألمانياً هو وولف كان قد نهض فى هذا العصر إلى هذا المعبد الذى كان يقيم فيه صنم هوميروس ففتحه ودخله وزار حجراته وغرفاته ثم خرج

فأعلن إلى الناس أنه لم يجد صنما واحداً وإنما وجد أصناماً ، وأن هوميروس ليس كما كان الناس يعتقدون . هذا الشاعر الالهى العظيم الذى لايجارى ولا يبارى . وانما هو فى أكبر الظن شاعر نابغة قد جاراه من غير شك كثير من الشعراء فبرعوا كما برع ونبغوا كما نبغ ونسبت آثارهم الخالدة اليه دونهم ، فزعم الناس أنه وحده صاحب « الالياذة » و « الاودسيا » ، على حين أن نصيبه من هاتين الآيتين يسير .

فلم يكد جوته يقرأ ما كتبه وولف حتى أحس الشجاعة على أن يجارى شعراء « الالياذة » و « الاودسيا » كما جارى شعراء التمثيل ، وكتب الى وولف يذكر له ميله الى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء الهوميريين .

وكانت الأنباء قد استفاضت بفتنة دينية فى مدينة سلزبورج انتهت بطرد البروتستنتيين منها ، فهاجر هؤلاء فى حالة سيئة ، ومروا فى هجرتهم هذه باحدى المدن فخرج الناس ينظرون اليهم ، وكان بين هؤلاء الناس شاب رأى بين المهاجرين فتاة راقته فأحبها ولكنه لم يعلن اليها الحب ، وانما طلب اليها أن تتبعه على أن تكون خادماً لأسرته فقبلت . فلما انتهت معه الى البيت أعلنت الخطبة وقبلتها الفتاة ، وقدمت الى الفتى شيئا من النقد كانت تحمله أهدته اليه مهراً لها .

فلما انتهت هذه القصة الى جوته فى هذه الظروف التى كانت تحيط به والتى أجملتها لك آنفاً كان كل شىء قد تم ، ليستطيع شاعرنا العظيم أن يضع هذه القصة الشعرية التى يستريح بها من العناء الذى لقيه فى تأليف قصة « ولهلم ميستر » .

ليس مايمنعه من محاكاة هوميروس فقد حاكاه الشعراء من قبله وليس مايمنعه من أن يجارى « فوس » ويضع قصة كقصة «لويز » ، وليس مايمنعه من أن يلائم بين هذين المثلين فيحاكى فى قصة واحدة الشاعر اليونانى القديم والشاعر الألمانى الحديث .

أما محاكاة الشاعر الألمانى فيسيرة سهلة لامشقة فيها ولا عناء وليس من شك فى أن الفوز فيها محقق لعبقرية جوته . ولكن الخطر كل الخطر والعسر كل العسر فى محاكاة هوميروس وللشعر الحماسى كما نجده فى الالياذة والاودسيا شروط وأصول منها مايتصل بموضوعه ومنها مايتصل بشكله وصورته ، وليس من اليسير على جوته أن يرعى هذه الأصول ويحقق هذه الشروط ولئن فعل فلن يكون من اليسير أن يذوقه الناس ويعجبوا به . فالشعر الحماسى لم يقبل إلى أيام جوته أن يكون له موضوع غير الحوادث الخارقة العالية التى تتصل بالأبطال والآلهة وكل محاولة للنزول بهذا الشعر عن هذه المنزلة قد لقيت الاخفاق . والشعر الحماسى فى حاجة إلى وزن خاص هو هنا الوزن السداسى الذى لم يألفه الألمان ولم

تستقيم له اللغة الألمانية . والشعر الحماسي يحتاج فى ألفاظه وأساليبه إلى شيء عظيم من الفخامة والضخامة والجلال الذى يبهر العقل والخيال ويملأ السمع والقلب معا . فكيف السبيل إلى تحقيق هذا كله وكيف السبيل بعد تحقيقه إلى حمل الناس على قبوله واساغته .

هذه هى المعضلة التى فرضت نفسها على جوته حين فكر فى إنشاء قصته الغرامية . ولكن جوته ليس رجلا مثلك ومثلى وإنما هو رجل نابغة فذ ، تستطيع المعضـــلات أن تفرض نفسها عليه ويستطيع هو أن يجد لها الحل وأن يفرضه عليها . وكذلك فعل ويحدثنا شيلر فى بعض كتبه إلى صديق له أنه هو وامرأته لم يكونا يدريان بأى الأمرين يعجبان من جوته حين يضع هـذه القصة فيطلعهما على خمسين ومئة بيت فى اليوم أيعجبان بهذا الشعر أم يعجبان بسهولة تأتيه للشاعر وسرعة الشاعر فى انشائه . ويقارن شيلر فى شيء من الاعجاب والحزن بين نفسه وبين جوته فبينما هو يجهد نفسه ويكلفها ألوان العناء ليخرج للناس أدباً لا يكاد يرضاه اذا جوته يهز شجرة نبوغه فيساقط عليه منها ألذ الثمار طعماً وأكبرها حجماً .

وقد كان شيلر موفقاً فى هذه المقارنة موفقاً فى اعجابه ببراعة جوته وخصب قريحته فقد انقاد له الشعر ووضع هـذه القصة فى أقصر وقت وتكلف فيها أقل عناء وجاءت على هذه السرعة والسهولة من أحسن الآيات التى أخرجها للناس .

يحتاج الشعر الحماسى الى موضوع له خطر وجلال وقد وفق جوته الى هذا الموضوع وهو الثورة الفرنسية . وأين تقع حرب طروادة من الثورة الفرنسية ! ولكن جوته لم يتخذ الثورة أصلا للقصة وانما اتخذها اطاراً لها ورأى أن هذا يكفى لارضاء إلهة الشعر القصصى . فاما أبطال هذه القصة . فقد اختارهم جوته بين هذه الطبقة الوسطى التى ظهرت بالسيادة الفعلية فى فرنسا والتى تطمح الى السيادة فى ألمانيا . وقد أحس جوته من إلهة الشعر القصصى نفوراً من هؤلاء الأبطال العاديين ان صح هذا التعبير ولكنه استطاع أن يزيل هـــذا النفور وأن يطلق لسان الشعر القصصى بمآثر هؤلاء الأبطال .

هل أنا فى حاجة الى أن الخص لك هذه القصة التى هى بين يديك؟ لا بد من ذلك فى أسطر قليلة لترى موضع البراعة فى قصة جوته :

قوم من الألمان المجاورين لفرنسا قد رأوا الثورة ففتنوا بها وخلبتهم مبادئها العالية ولكنهم لم يلبثوا ان رأوا ما أثارت من الحروب واذا هى تطردهم من بلادهم واذاهم يعبرون الرين مشردين . وهم فى طريقهم يمرون بمدينة ألمانية صغيرة فتبتدىء القصة فى هذا المكان . تبتدىء فيه وتنتهى فيه فى أقل من يوم . ذلك ان أهل المدينة قد هرعوا الى الطريق العامة ليروا هؤلاء المشردين وليحملوا اليهم ما يستطيعون تقديمه من المؤونة . وكان بين أهل المدينة فتى هو

هرمن أبوه صاحب فندق وقد خرج يحمل الى هؤلاء المشردين ماجمعت له أمه من طعام وشراب وكسوة فرأى بين هؤلاء الناس فتاة بارعة الجمال رزينة رصينة لم يكد يراها ويتحدث اليها حتى شغفت قلبه فعاد الى أسرته وقد جن بها جنوناً .

وكان أبوه وأمه شديدى الرغبةفى تزويجه ، وفى تزويجه من فتاة غنية لها ثروة ضخمة ومكان رفيع فى المدينة . وكان أبوه شديد الحرص على هذا الزواج لأن فيه الثروة والرفعة معاً ولكن الفتى لم يظهر ميلا الى هذا الزواج بل أظهر منه نفوراً وعنه أزورارا فسخط أبوه واشتد سخطه وانصرف الفتى محزوناً كئيباً ثم تتبعه أمه باحثة عنه حتى تظفر به فى ظل شجرة فاذا هو يائس قد اعتزم أن يفنى مابقى من أيامه فى الحرب دفاعا عن مدينته ان تعرضت للخطر . وما تزال أمه به حتى تعلم علمه واذا هو مشغوف بهذه المهاجرة يريد أن يتخذها له زوجا وما أسرع ماتطيب أمه نفسها بهذه الفكرة وما أشد ماتجتهد باقناع الوالد بها ولكن الوالد مغضب سيء الظن لايطمئن الى هذا الرأى الا كارها وعلى ان يذهب صديقان أحدهما صيدلى والآخر قسيس ليعلما علم الفتاة . فيذهبان ويرافقهما الفتى وقد رأيا الفتاة فأعجبتهما ورضياها للفتى زوجا وعادا بهذا النبأ الى الاسرة وتخلف الشاب ليعلن حبه الى الفتاة . ولكنه لم يجرؤ على ذلك لأن الفتاة قد ملأت نفسه هيبة وروعة ولأنه رأى فى أصبعها

خاتم الخطبة ولكنه مع ذلك يعرض عليها الخدمة في بيته فتقبل ولعلها أحست حب الفتى ولعلها طمعت فيما هو خير من الخدمة ويعودان مشيا الى البيت وقد انقضى النهار وأقبل المساء ثم تبعته العاصفة. ولا يكاد الفتى يدخل مع صاحبته على أبيه وأمه وصديقيه حتى يزداد الأمر تعقيداً. الفتى لم ينبىء صاحبته بحبه وانما عرض عليها الخدمة وأبوه لا يعلم إلا ان هذه الفتاة ستكون زوجاً لابنه فهو يسألها أأعجبك الفتى! فيسوء ظن الفتاة بهذا السؤال ويكون حوار مؤلم تعزم معه الفتاة على أن تعود أدراجها ولكن كل شيء ينجلي ويعلن الحب وتكون الخطبة.

هذا تلخيص أقل ما يوصف به انه سخيف لا يدل على شيء مما في القصة من جمال وبراعة ولكني قد قدمت هذا السخف لتستكشف أنت كيف يستطيع شاعر نابغة كجوته ان يخرج من قصة يسيرة كهذه آية فنية كهذا الكتاب الذى أضعه بين يديك، ستجد هذه البراعة في تصوير أشخاص القصة بما لهم من حياة وشعور وذكاء وخلق. بما تجد عند الالمان ومن صفات أخرى تجدها في الناس جميعا. بما تجرى به ألسنتهم من حديث ساذج ولكنه خصب كأخصب ما يكون الحديث. فيه تصوير لحياة الطبقات الوسطى في المدن وفيه تجلية لهذه الحكمة الرائعة التي تسيطر على حياة الناس مهما تختلف الأجيال والأزمان. نعم وستجد هذه البراعة في هذا التصوير الخفيف الأخاذ للطبيعة الحية في المدينة ومن حولها في غير تكلف ولا بحث ظاهر ولا استقصاء

للألفاظ الخلابة . نعم وستجد هذه البراعة بنوع خاص ان كنت قد قرأت الالياذة والأودسيا حين تحس التشابه بين هذين النوعين من الشعر فى الوزن أولا وليس هذا بالشيء الذى يعنينا وفى الأسلوب والسذاجة بعد ذلك ، وهو الشيء الذى يجب أن نقف عنده ونلتفت اليه .

أبطال جوته كأبطال هوميروس فيهم سذاجة حلوة وفيهم دعة كلها عذوبة وفيهم على ذلك شده فيما لابد من الشدة فيه . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون أغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة ؛ ويصورون لك أنفسهم فى هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا أحيوا من حولك كل شيء وأجروا الحركة فى كل شيء . وأشركوك معهم ومع الأشياء فى هذه الحركة وفى هذه الحياة. وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الايجاز فى الحديث والأعراض عما لاحاجة اليه ولكنهم يلمون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك عن أشياء قيمة فى هذا التفصيل الذى كنت ترى أن لاحاجة اليه .

وفق جوته من غير شك كل التوفيق ، لاأقول فى محاكاة هوميروس وأصحابه ، بل أقول فى الملاءمة بين فن هوميروس وأصحابه ، وبين الحياة الحديثة آخر القرن الثامن عشر .

أما فى ألمانيا فقد فاز جوته باعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة . فتن بها الشعب ، ورضى عنها أكثر النقاد ، وتنكر لها بعض الحاسدين . ولكنها لم تبلغ ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة

الألمانية . واذا هى تترجم الى الفرنسية والانجليزية والايطالية . وتمضى بعد ذلك أعوام ، واذا هى تترجم الى اللاتينية . ويرى جوته هذه التراجم وينظر فيها ويرى هذا الفوز ويقول فى آخر حياته أن هذه القصة قد بعثت فى نفسه من الرضى مالم تبعثه قصة أخرى من قصصه المختلفة.

فاذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة للدكتوراه فى السوربون فاذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع البحث الواسع العميق فى البيئات العلمية والأدبية المختلفة فى أوروبا .

وينتهى القرن التاسع عشر ويتقدم القرن الذى نحن فيه ويحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة جوته ونفكر نحن فى هذا الاحتفال ثم يحال بيننا وبينه فنتفق أنا وصديقى عوض على أن نحتفل بهذا العيد كما نستطيع .

وأى أسلوب فى الاحتفال بجوته أحسن من أن يترجم عوض هذه الآية من آياته ومن أن أنوب عنه أنا فى تقديمها الى القراء . وقد اشترط على ألا أذكره بخير وأنا عند شرطه . ولكنه لن يستطيع أن يمنعنى من أن أعلن راضياً مبتهجا أنه قد استطاع فى ترجمته العربية أن ينقل الينا نقلا صحيحاً ما قصد اليه جوته فى قصته هذه من السذاجة العذبة الخصبة معاً. واذاً فلغتنا العربية قادرة على أن تسع الفنون الأدبية لجوته اذا وجد مترجمون كعوض . واذاً فقد أستطيع بعد أن نبت عن عوض فى تقديم هذا الكتاب الى القراء أن أنوب عن القراء فأهدى الى صديقى وصديقهم أجمل التهنئة وأصدق الشكر؟

طه حسين

هرمن ودروتيـــه

قصيدة (ايليجيا) (١)

....

إذن لقد كان جُرمًا أنْ أثار پروپرتيوس (٢)
فى نفسى حماساً ؛ وأن قد اتخذت مارسيال —

(١) لهذه القصيدة تاريخ لابد من ذكره : ذلك أن جوته وشيلر كانا يكتبان قطعاً شعرية قصيرة اسمها إكسنيا Xenie ينتقدان بها معاصريهم ويسخران منهم . وقد رد هؤلاء النقد بمثله ، وطعنوا فى كثير من مؤلفات جوته . وبهذه القصيدة (وهى من نوع خاص اسمه « الايليجيا » يرد جوته على الذين انتقدوه ولاموه على تشبهه بكتاب اليونان واللاتين . ولم تكن لهذه القصيدة أولا علاقة بكتاب هرمن ودروتيه ، لولا أنه فى آخرها يعلن للناس كتابه الجديد ، والمنحى الذى يريد أن ينحوه فيه : أن يقص قصة ألمانية عصرية على نمط قديم : على طراز شعر هوميروس. ولم تلحق هذه القصيدة بكتاب هرمن ودروتيه الا فى سنة ١٨٢١ أى بعد ظهور الكتاب بنحو ٢٥ سنة . والمتكلم فى هذه القصيدة هو بالطبع جوته نفسه .

(٢) پروپرتيوس Propertius أكبر شعراء اللاتين الذين نظموا القصائد التى من نوع ايليجيا Elegia . وليس معناها هنا مرثية . بل نوع من الشعر من وزن وشكل خاص . وقد اقتدى جوته بهذا الشاعر فى كتابة القصائد الرومانية . التى ألفها بعد عودته من روما — أما مارسيال Martial فهو من أشهر شعراء اللاتين فى النوع المسمى ايبجرام Epigram أى حكمة أو مثل . وتفيد أحياناً معنى مقطوعة

ذلك الوقح الجرىء — رفيقاً وصديقاً . . .
أجل كان جرما أن صاحبت القدماء
ولم أنبذهم فى مدرستهم ، ورأنى ظهرياً .
وأن قد رافقونى — فى الحياة —
إلى لاتيوم راغبين طائعين (١) . . .

أمِن الجرم أنى جشمت النفس كل عناء
فى استطلاع ما بالطبيعة وما بالفنون من حسن وإبداع؟
وأن لست مِمّن تخدعهم الأسماء أو تقيّدهم الأوضاع ؟
وهل أجرمت إذ صَمَدْت لدوافع الحياة المُلِحَّة ،
فلم تبدِّل من طبعى ولا من شِيَمى :
واذ هتكت برقع الرياء الشائن باحتقار وازدراء ؟

فيا ربة الفن (٢) ! ان هذه الصفات

شعرية من غير نظر الى الموضوع . وقد اتخذه جوته مثالا فى كتابه حكم البندقية Venetianische Epigramme . وقد هوجم جوته من أجل هاتين المنظومتين والى هذا يشير هنا .

(١) اشارة الى رحلته الى ايطاليا ، حيث كانت كتب القدماء مرشده الأول .

(٢) يخاطب إلهة الفن «Muse» على طريقة الشعراء فى الشعر الحماسى .

هي غرسك الذي غرسته في نفسي بجد ونشاط .
قد جعلها الغوغاء وصمات وهنات ،
لأنهم يحسبونني كأحدهم .
بل إن الأخيار أنفسهم — على ما بهم من صفاء ووفاء —
يريدون مني أن أسلك غير سنتي .
لكنني ، أيتها الربة ! لن أأتمر إلا بأمرك .
فأنت وحدك التي مازلتِ تبعثين في صدري
قوة الشباب ، اذا ما أخلق جلبابه .
وقد عاهدتني على هذا مدى الحياة . . .
فيا أيتها الربة ! لِتَشملْني اليوم عنايتُك المقدسة
أضعافاً مضاعفة . فقد أصبح الرأس
وما تَزِينهُ الذوائب الجميلة كما عهدناه من قبل .
فما أحوجه اليوم إلى إكليلٍ
يخدع به الناس ويخدع به نفسه !
وقديماً كان قيصر (١) نفسه
يلبس الاكليل مُكرَهاً لا مختارا .

---

(١) قيصر : هو يوليوس قيصر ، وقد سمح لهبلبس الاكليل دائما ليخفي به صلعه.

فان كان لى عندك ، أيتها الربة !
غُصْنٌ من الغار . فذريه اليوم على شجرته .
يزدد خُضرةً ونَضرةً ،
عسى أن يحين يومٌ فأصير به جديرا .
عمّا قليل يأتى المشيب ،
فينثر زنبقه الفضى خلال الذوائب السوداء .
فلا تبخلى على الآن باكليل من الورد الجنى ،
يتوج سعادتى المنزلية (١) .
وإنى لسعيد إذ أرى الزوجة تشعل النار
فى موقد نظيف . من أجل طهى الطعام .
واذ أرى الصبى يلقى بالأغصان فيها ،
وهو يلهو ويلعب . . .

---

(١) هنا يتكلم جوته بصراحة عن سعادته العائلية . وكان هذا عقب اتصاله بكرستيانا فوليبوس وقد ولدت له ابنه أغسطس وهو المذكور بعد . ويدعوها جوته فى البيت التالى زوجه . . ومن الكتاب من يرى أن كتاب هرمن ودروتيه عبارة عن نشيد جليل فى وصف السعادة المنزلية والحياة الزوجية . وفى هذه السطور يقول جوته — متواضعاً — انه لم يبلغ فى الشعر بعد منزلة يستحق فيها إكليل الغار ، ولكنه بلغ فى سعادته المنزلية درجة عليا يستحق فيها إكليلا من الورد .

فاملئى ايتها الربة أقداحنا بالمدام !
ويا أصدقائى الذين يعشقون السَّمَر ،
والذين هم على شاكلتى ومذهبى !
أهلاً بكم إن لكم عندى أيضاً أكاليل !
فتعالوا نشربْ أولا نخب ذلك الرجل الجرىء ،
الذى خلَّصَنَا أخيراً من هوميروس (١) :
خلصنا من ذلك الاسم العظيم الهائل ،
لكىْ يَسلُكَ بنا طريقاً أجلَّ وأعظم .
ومن ذا الذى يَجرُؤُ على التطلّع لمرتبة الآلهة ؟
بل إلى مرتبة إلهٍ واحد ؟
بيد أنى، رغم هذا، أرى حَسَناً — وإن جئت أخيرا —
أن أكون أحدَ أولئك الهوميريين ..
فيا أخِلاَّى ! أنصتوا إلى هذا القريض الجديد :

---

(١) يشير إلى الكاتب الألمانى ولف Wolf وهو من معاصرى جوته وكان بينهما معرفة ومودة . وهو أول من قال بأن القصائدالمنسوبة الى هوميروس (الالياذة والاوذيسية) ليست من تأليف رجل واحد، بل من وضع كثيرين أطلق عليهم اسم الهومريين (Homeriden) . وهم الذين يشير اليهم جوته هنا باسم الهة ، ويود لو أتيح له أن يقلدهم .

وأترِعوا الأقــداح بالراح :
لَعَـــلَّ فى الصهباءِ والحبِّ والصَّـــداقة
ما يحملكم على التسامح والاغضاء ..
إنى سأسوق أمامكم صُوَراً لحياة الألمان أنفسهم
فى دارٍ تجمع بين البساطة والهدوء .
حيث الانسان يتعلم من الطبيعة
كيف يغدو إنسانا كاملا .
وليكن رفيقَنا اليــومَ روحُ ذلك الشاعر ،
الذى سحرنا بيانه ، إذ يَقُصُّ علينا قصة (لويزا)
وكيف عقد لها بسرعة على الفتى الجدير بها (١)
وكذلك سأســوق أمام أعينكم
صوراً أليمــةً لذلكم العهدِ الحــزين (٢) .
وأريكم كيف يخرج الجنس الباسل الطاهر
وقــد عقد له أخــيراً لواء النصــر ..
ولئن وفقتَ لاستدرار الدمع من مآقيكم ؛

(١) قصة لويزا للشاعر الألمانى Voss تشبه الى حد ما قصة هرمن ودروتيه .
ومنها اقتبس جوته موضوع هذا الكتاب .
(٢) أى عهد الثورة الفرنسية .

ولئن أخذتكم نشوة الطرب لما أنشده الآن
فتعالوا عانقوني عناق المودة الخالصة .
وأسندوا صدري إلى صدوركم .
إن حديثنا اليوم حديثُ عقلٍ وحكمة :
فلقد ألقى علينا هذا القرن (١) في نهايته
دروس الحكمة الغالية ،
بما أجهدنا به القضاء ، وابتلانا به القدر .
إن في قلبكم من السرور والطرب
ما يعلمكم القناعة والرضى بالقليل .
فلننظر ، إذن ، الى تلكم الأيام الماضية :
نظرةَ طمأنينةٍ وارتياحٍ .
ولئن عنينا كثيراً بمعرفة الرجال والشعوب
فلنتعلم ، أيضاً ، ما انطوت عليه الجوانح .
وما استقرّ في أعماق النفوس .
يكُنْ لنا في هذا من السرور أوفى نصيب .

---

(١) أي القرن الثامن عشر . وفي نهايته كتب هذا الكتاب . والدروس المشار اليها هي الثورة الفرنسية في كل أطوارها .

النشيد الاول

كاليوبيا[1] KALLIOPE

(الهة الشعر الحماسى)

....

صروف القضاء وعطف القلوب

« لعمرى ما رأيت هذا الميدان ولا هذه الطرق خلاءً قفرا كما أراها اليوم . وكأنى بها قد كُنِست كنسا ، أو بسط عليها الموت جناحيه . فلا أكاد أبصر من أهل المدنية جميعاً خمسين رجلا .

---

(١) الكتاب مكون من تسعه أناشيد ، وكل نشيد عنوانه اسم من أسماء آلهات الفنون Muse كما فعل هردروت : كأنما المتكلم فى كل نشيد هو الموسا نفسها . والهة النشيد الاول هى إلهة الشعر الحماسى : أو شعر الملاحم Epos . لان الكتاب هو من هذا الطراز . ولكل نشيد عنوان ثان يدل على موضوعه وهو هنا صروف القضاء وعطف القلوب . لان القضاء نزل بكثير من الهاربين اللاجئين فى عهد الثورة الفرنسية . فهاجروا الى نهر الرين فعطفت عليهم قلوب الناس كما سنرى فى النشيد..

« إن حب الاستطلاع لذو سلطان على النفوس ! فلقد هُرِع الناس وتدافعوا من كل صَوب ، مسارعين الى رؤية ذلك القطار الحزين من اللاجئين التعساء .

« إن بيننا وبين ذلك الجسر الذى سيسلكونه سير ساعة من الزمان ، ولابد بعد ذلك من الانحدار والمشى وسط الغبار وفى حرّ الظهيرة ... ولن ترانى مُخَلِّياً مكانى ، من أجل رؤية ذلك الشقاء ، الذى ترزح تحت عبئه تلك الجماعات الهاربة؛ وليس بيدها سوى القليل مِمَّا استطاعت إنقاذَه حين أكرهت على ترك أوطانها الجميلة وراء الرين والالتجاء الى ديارنا (١) ، حيث يطوفون بأرجاء هذا الوادى الخصيب ، وبين منعطَفات نهرنا الفياض .

« ولعمرى لقد أحسنتِ صنعاً أيتها الزوجة ، إذ هزّتك الأريحيَّة ، فبعثتِ ابننا لكى يحمل الى هؤلاء البائسين بعض

(١) هذه الجماهير جاءت من الناحية الغربية لنهر الرين : أى من البلاد الالمانية المتاخمة لحدود فرنسا مثل الالزاس . . وهؤلاء الالمان حين أرادوا الفرار عما سببه لهم الاحتلال الفرنسى من الشقاء اضطروا لان يجتازوا نهر الرين الى الناحية الشرقية (الناحية اليمنى) حيث المدينة الصغيرة التى تدور فيها حوادث هذا الكتاب .

الملابس القديمة وشيئاً من الطعام والشراب . فان العطاء فرض على ذوى اليسار .

« وإنى لشديد الاعجاب بفتانا إذ أراه يسوق المركبة بمهارة فائقة . وقد أخضع الجياد ، يسيرها كيفما شاء . وتعجبنى مركبتنا الجديدة ، فهى حقيقةً على شىء كثير من الحسن . ومن السهل أن يجلس بها أربعة أشخاص دون مشقة أو عناء . عدا السائق الذى يجلس على مقعده الخاص .

وهو اليوم يسوقها منفرداً لم يصاحبه أحد . . أرأيتِ كيف دار بها حول ناصية الطريق بسهولة تامة ؟ »

هكذا كان صاحب فندق « الأسد الذهبى » يتحدث الى زوجه وهو جالس فى مدخل داره مستريحاً مطمئنا .

فقالت زوجه ، وقد أوتيت شيئاً كثيراً من العقل والذكاء : « إنى أيها الوالد (١) لستَ بالتى تهبُ ما عندها من قديم الثياب والأقمشة عن طيب خاطر ؛ فانها أشياء تفى

(١) عبارة مألوفة عند الاوربيين فى خطاب المرأة لزوجها متى أصبح والداً . وكذلك الاب ينادى زوجه يا أم !

بشتى الأغراض والحاجات . وليس من السهل شراؤها بالمال حين نغدو فى حاجة اليها . لكننى اليوم لم أتردد فى بذل مُقْتَنيات حسنة من الألبسة والأغطية . فلقد سمعت أن فيهم أطفالا صغاراً وشيوخاً فانين يمشون عراة أو شبه عراة .

« فهل أنت صافحٌ عنى إذ لم أحجم عن الاغارة حتى على خزانة ثيابك أنت . ومما أخذته منها جُبَّة نومك(١) ذات الازهار البديعة المطرَّزة بالحرير الهندى على قماش من القطن الثمين ، ومُبطَّنة بأحسن الصوف وأغلاه . ولم أتردد فى بذلها لهؤلاء البائسين . لأنها كما تعلم قد غدت قديمة مهلهلة ومن طراز عتيق . »

فتبسم صاحب الفندق ، وقال : « إنى ليسوءنى فقد هذه الجبة القطنية القديمة . فانها بضاعة شرقية أصيلة ، ولا يتسنى وجود مثلها اليوم . على أنى الآن لم أعد أرتديها . فقد أصبحنا فى زمان يُراد منا فيه أن نلبس دائما العباءة والكساء البولونى وأن نحتذى النعال الطويلة دون القصيرة . وحُرِّم علينا حتى لبس القلانس الخفيفة . »

فقالت زوجه : « ها قد عاد أدراجه بعض أولئك الذين

---

(٢) ترجمة لكلمة Schlafrock وهى المعروفة بالروب دى شامبر .

ذهبوا لرؤية الوافدين . فلعل المشهد قد انتهى . أنظر إلى أحذيتهم ، كيف تراكم عليها التراب . وإلى وجوههم كيف تلتهب لما عانوه فى هذا الحر الشديد . وهاهم أولاء يتناول كل منهم منديله يمسح به عرقه المتصبب ، ولو أنى مكانهم لما أنهكت قواى ، بعد ذلك المشهد ، بكل هذا العدو والاسراع . ولعمرى إنهم سيشبعوننا اليوم قصصا وأحاديث » .

فسكت الوالد مَلِيّا . ثم قال فى شىء من التأنى والتأكيد :

« إنا بعيدو العهد بمثل هذا الهواء الصحو الجميل فى زمن الحصاد . وغدا لا بد لنا أن نشرع فى جنى الثمار ، كما حصدنا البرسيم من قبل دون أن تفسده الأمطار . . ما أشد صفاء السماء ! ، إن العين لا ترى سحابة واحدة تشوبه . وتهب علينا من الشرق صبا عليلة باردة تنعش الروح .

أن هذا الهواء من الطراز الثابت الذى لا يتغير بسرعة (١) . وهاك القمح قد نضجت سنابله وأمعنت فى النضوج . فغداً نبدأ حصاد هذه الغلّة الوافية الوافرة » .

فى أثناء كلامه هذا كانت جماهير الرجال والنساء تتزايد .

---

(١) ان صاحب الفندق كثير التفاؤل لان الطقس يتغير فعلا قبل انتهاء اليوم .

وكلهم يخترق الميدان قاصدا إلى داره . وكان يُرى فى جملة العائدين جارهم التاجر الغنى . أكبر تجار البلدة وأعظمهم شأنا . وقد دخل الميدان من الناحية الأخرى ومعه بناته فى مركبة مفتوحة من الطراز الذى يصنع فى مدينة لاندو .

وهكذا عادت إلى الطرقات الحياة واشتدت بها الحركة . لأن المدينة ، على صغرها ، كثيرة الأهل والسكان . وبها كثير من الصناعات والحرف الناجحة .

كان الزوج والزوجة جالسين فى مدخل الفندق ، ينظران الى هذه الجموع ، يموج بعضها فى بعض ، ويتسليان بما يشاهدان أمامهما ، ويتبادلان العبارات والاشارات . إلى أن قالت الزوجة الكريمة : «أنظر ! ها هو ذا القسُّ قد عاد وهو مُيَمِّمٌ شطرنا . وهذا جارنا الصيدلى قد رجع أيضا . وسيقصان علينا من غير شك كل ما رأياه هناك ، مِمَّا لا تُسر لمرآه العيون . »

وحقا وصل الصديقان إلى الفندق ، وحيَّا الزوجين أحسن التحية . ثم جلسا على دكتين من الخشب فى الدِّهليز . وبعد أن نفضا الغبار عن أقدامهما ، وتَرَوَّح كل منهما بمنديله ، وتبادل الجميع عبارات التحية والسلام ، أخذ الصيدلى يتكلم

فى شىء من الغيظ والكمد فقال : « إنى لأعجب كل العجب لهؤلاء الناس — وهم فى هذا جميعا سواء — إذ يحلو لهم أن يقفوا ويُحَمْلِقوا لما يصيب جارهم من مكروه، ولما ينزل به من خطبٍ. فتراهم يسارعون ويتدافعون، لكى ينظروا النيران يندلع لهيبها وتجتاح ما حولها . . ويبادرون الى رؤية المجرم المسكين حين يساق إلى الموت . واليوم نراهم جميعا قد انطلقوا ليشاهدوا ما حل بأولئك الطريدين من شقاء وما يعانون من آلام . وقلما يفكر أحدهم أن قد يحل به ما ألم بأولئك التعساء، إن عاجلا أو آجلا . اللهم إنى أجد فى هذا خفة لا تغتفر، وإن كانت مغروسةً فى طباع البشر » .

فتكلم القسيس وكان رجلا ذكى العقل، كريم النفس؛ زينةَ أهل المدينة جميعا: وهو بعد أدنى إلى الشباب وإن كملت رجولته . وكان أدرى من صاحبه بالحياة، وأعرف بما يريده السامعان من الأنباء . ناهيك أنه رجل قد طالع الكتب المقدسة وتعمق فى درسها؛ وامتلأ صدره بما حوته من الآيات الغالية، التى تكشف عما تكنه الصدور من الأسرار، وما تضمره المقادير لبنى الانسان . وكذلك كان ملما بأحسن

ما فى الكتب الدنيوية .

وتكلم القسيس فقال : « لست أود أن ألوم بنى الانسان من أجل أعمال ضررها يسير ، تُمليها الغريزة ، ويدفعهم إليها الطبع . فان غرائز الناس ، التى تقودهم على رغمهم ، وتتحكم فى أهوائهم فتسيرهم كما تشاء ، تلك الغرائز كثيرا ما تصيب النجاح والتوفيق حيث يفشل العقل والتدبير ، وتقصّر الحكمة والذكاء . . قل لى بربك إذا كان شغف الانسان بالاستطلاع لا يجذبه بتلك القوة الساحرة ، فأنى له أن يدرك ما بالكون من حسن النظام وجمال التنسيق ؟ فالانسان فى مبتدأ أمره شغفٌ بالبحث عن كل جديد . بعد هذا يسعى وراء النافع المفيد ، وأخيرا تلقاه يطلب الخير وينشد الصالح من الأمور . لكى يرتفع بهذا شأنه ويعلو به ذكره . فهو فى شبابه ترافقه الخفة والرعونة وتلازمانه أينما سار . وتخفيان عن عينه الأخطار التى قد تعترض طريقه . وإذا حلت به كارثة أو نزلت به ملمة فسُرعان ما تمحوان آثارها وتزيلان آلامها . ولنعم الرجل الذى يستطيع أن يولّد من رعونة الشباب هذه عقلاً رصينا يجد ويدأب فى السراء والضراء على حد سواء . فيفعل

الخير ويُعلى من شأنه . ويصلح الفاسد ويزيل الشرور » .

وكانت السيدة الفاضلة قد عيل صبرها فقالت تخاطب الرجلين: «لكن ألا تحدثاننا بما رأيتما اليوم؟ فبودي لو أحطت بهذا علما » .

فتكلم الصيدلي جارهم فى جدٍّ وهدوءٍ ، فقال : « هيهات أن يعود الى قلبي السرور بكل هذه السرعة بعد الذى شاهدته اليوم . ومن ذا الذى يستطيع أن يصف لكم ذلك الشقاء ذا الأشكال والألوان . . لقد لاح لنا من بعيد مُثار النقع ، ونحن لم نتحدر بعد الى السهوب . وكانت جموع الطريدين قد أخذت تصعد ثم تنحدر من كثيب الى كثيب . فلم يكن من المستطاع أن تتبيَّنَ الأعين من أمرهم شيئاً . ولما بلغنا الطريق التى تعترض الوادى وتصل بين جانبيه ، رأينا الناس ما بين راكب وراجل ، يتزاحمون ويتدافعون . وأبصرنا أيضاً — ويالللأسف — بعض أولئك التعساء ، وقد أخذوا يمرون بنا ، فاستطعنا أن نقرأ فى وجوههم ما يعانيه الطريد الشريد من مرراة وألم ، وما يحسه ، رغم هذا ، من سرور وفرح ، إذ تسنى له أن ينقذ حياته من بين مخالب المنون .

أجل لقد كان من المؤلم حقا رؤية تلك الأمتعة العديدة من كل نافع مفيد ، مما نراه عادة فى كل منزل عُنِى أصحابه باعداده وتنسيقه . فيجعلون لكل متاع مكانه الخاص به ، تتناوله الأيدى بسهولة كلما دعت اليه حاجة ثم ترده الى مكانه . . . والآن كُنا نرى كل تلك الأمتعة . وقد اختلطت وامتزج بعضها ببعض ، بعد أن انتُزِعت من مواضعها انتزاعا . وحمِّلت على عجل فوق مطايا وركائب من كل نوع ومن كل طراز . فكنت ترى الغِربال وأغطية الصوف ملقاة فوق خزانة الثياب . والفراش الوثير وسط وعاء العجين ، وغطاء المائدة ملقى على المرآة . . ولقد مارسوا من غير شك ذلك الفزع الذى قاسيناه شره نحن منذ عشرين عاما فى أثناء الحريق الهائل . إذ طاشت بنا الأحلام ، فأخذ الناس يجمعون الغث من الأشياء ويتركون الثمين من خلفهم ، وكذلك شاهدت اليوم أولئك المشرَّدين وقد احتقبوا من تافه الأمتعة وحقيرها ، ما أضنوا به مطاياهم ودوابهم : فمن فرش بالية . إلى براميل قديمة . الى بيتٍ للطيور أو قفص للعصافير . كلّ هذا وأمثاله قد جمعوه واحتزموه بدقة وعناية ، لكن من غير عقل

ولا تدبر. ولكم رأينا اليوم مِنْ طفل صغير أو امرأة ضعيفة. تلهث إعياء ونصبا، وهى تنوء بما تحمله أو تجره من جُوالق أو سفط أو باطية. كلهما مملوء مفعم بأمتعة ليس فيها نفع ولا غَناء.. فما أشد حرص الانسان حتى على الحقير التافه مما ملكت يمينه!

وهكذا كانت جماهير الطريدين تسير فى طريقها، وقد ثار من فوقها الغبار، وهى تمشى على غير هدى، وتتدافع من غير نظام: هـذا تعِبَت دوابه ويريد أن يسير الهوينى؛ وذلك عَجِلٌ يريد أن يسرع فى خطاه. ههنا تسمع صياح نساء وأطفال قد آدهن الزحام. وهناك تسمع خُوار الدواب وعواء الكلاب؛ وهنالك تسمع عويل الشيوخ والمرضى، وقد أجلس كل منهم على ظهر مركبة قد حملت أقصى ما تستطيع أن تحمله، فهى تهزه هزا عنيفا.

ويا ليت هذا كل ما يكابدون. فان الزحام الشديد كثيرا ما يميل بالعجلات عن الطريق ويدفع بها إلى حافة الجسر. فتهوى المركبة الى الخندق، ثم تنقلب بما تحمله من متاع ومن ناس، ولحسن الحظ قد سقط الناس بعيدا وسط الحقول،

وأما الصناديق الثقيلة فهوت الى جانب المركبة . ولقد خُيِّل الى من شاهد هؤلاء الناس عند سقوطهم أن سيراهم وقد حطمتهم تلك الصناديق والخزائن . بل سحقتهم سحقا . . على كل حال لقد تحطمت المركبة ؛ وبقى أصحابها حيارى ما لهم من مُعين . فقد تركهم الآخرون وانطلقوا فى سبيلهم ، يدفعهم التيار دفعا ، فلا يعنيهم سوى أمر أنفسهم . وقد أسرعنا نحو هؤلاء المرضى والشيوخ الهرمين الذين برح بهم السقام ، بحيث لو كانوا فى ديارهم وعلى فراشهم لكفاهم ما يعانون من ألمٍ ووصب . فكيف بهم الآن وكلهم طريح الثرى مضعضع الجسم ، يئن ويتأوه . وقد أحرق حر الشمس محياه ، وخنقه الغبار المتطاير » .

فقال صاحب البيت ، وقد أثار الحديث فى قلبه عاطفة الرحمة : « ليت ولدى هرمن يلقاهم ، فينعشهم ويكسوهم . أما أنا فما أحسبنى أرغب فى رؤيتهم ، لأن منظر الشقاء يؤلمنى ، ولقد تأثرنا حينما سمعنا الأنباء الأولى عما يعانيه أولئك البائسون ، فبادرنا مسرعين بارسال شىء مما فضل عن حاجتنا ، مساعدة للقليل منهم ، وهكذا استراح ضميرنا نوعاً ما .

والآن فلنترك ذكر تلك المشاهد الأليمة ، فانها سرعان ما تبعث الرعب فى القلوب، فتملؤها بهموم وأشجانٍ هى شرٌ من الخطب الذى آثارها فى النفس .

فهلمَّ بنا إلى الحجرة الخلفية الصغيرة ، ذات الهواء البارد العليل ، فهى ليست معرضة لأشعة الشمس ، والهواء الحار لا ينفذ إليها بفضل هذه الجدران السميكة . وهنالك فلتحضر الأم العزيزة لكل منا كأسا من نبيذ العام الثالث والثمانين(١) وبهذه الكأس فلتنفض عنا غبار الهموم . أما هذا الدهليز حيث نحن الآن . فلا يصلح للشراب ، إذ سَرعان ما يحدق الذباب بأقداح الراح » .

فانطلقوا جميعا الى تلك الحجرة فرحين بتلك الكأس المنعشة . وهنالك أحضرت لهم الأم النبيذ الأبيض الصافى فى قارورة مصقولة لامعة على صينية من الصفيح المجلوّ المضىء . وقد صَفت فوقها أقداح من الزجاج الأخضر : وهى أقداح

---

(١) أى الذى صنع من عنب سنة ١٧٨٣ . وكانت سنة اشتهرت بجودة عنبها وجودة الخمر التى صنعت من ذلك العنب . ووادى الرين من أشهر أقاليم أوربة انتاجاً للخمر .

نبيذ الرين الحقيقية . وجلس الأصدقاء الثلاثة حول مائدة مستديرة سمراء اللون ، قد أجيد صقلها ، ذات قوائم ضخمة متينـــة .

ولم تكد الأقداح تُملأ حتى رفع صاحب الدار والقسيس كأسيهما ، وتدافع الكأسان برفق . . بيد أن ثالثهم قبض على كأسه مطرقا مفكرا . ولم يرفعها عن المائدة . فأخذ صاحب البيت يستحثه بعبارة رقيقـة . وقال : « هلم أيها الجار العزيز فاشرب معنا ! ألا ترى أن الله جل شأنه، قد وقانا السوء برحمته وكرمه إلى اليوم ، وإخاله سيرعانا فى مستقبل أيامنا أيضا . ومن يستطيع أن ينكر أنه تعالى منذ ابتلانا بذلك الحريق المفظع : فأنزل بنا ذلك العقاب الصارم ، لم يزل بعد ذلك يغمرنا بالسعادة ويشملنا بالرعاية والعنـاية ، كما يعنى المرء ويحرص على إنسان عينـه وهو أعز الجوارح عليه . . بعد هـذا كله أيحرمنا ، سبحانه ! هـذه الحماية والمعونة ؟ على أن قوته تعالى وسلطانه إنما يبدوان للأعين حين تنزل الشدائد وتحدق الأخطار . . أيمكن أنه وهو الذى أقام صرح هـذه المدينة الزاهرة ، وشيدها بأيدى بنيها المجدين ، بعد أن كانت

رماداً وأنقاضا، ثم أسبغ عليها فضله وبركته، يعود اليوم فينزل بها الدمار والخراب؛ ويقضى على كل تلك الجهود؟»

فقال القسيس بصوت هادىء رقيق وقد سره ما سمعه:

«تمسك بأهداب الايمان. واعتصم، ما استطعت. بهذه الآراء؛ فبمثلها تغدو فى أوقات السعادة رزيناً مطمئنا، وهى فى زمن الشقاء نعم السلوى والعزاء، ونعم الباعث للأمل والرجاء!»

فأجاب رب البيت بعبارات تبدو فيها الرجولة والحكمة. فقال: «لكم كنت أحيي نهر الرين وتياره المتدفق، كلما عدت إليه بعد أسفارى ورحلاتى. ولكنى قلما خطر لى أن ضفافه الجميلة ستصبح يوما بمثابة السد المنيع، لندرأ به عنا الفرنسيين. وأن سيغدو مجراه الفسيح خندقا ليقينا ويدفع الشر عنا. فانظر كيف تحفظنا الطبيعة. وكيف يحمينا الألمان البواسل، وكيف يكلؤنا الاله جل جلاله! فأى أحمق يجحد أو يكفر؟ إن المحاربين قد سئموا القتال وأضنتهم الحروب، وكل شىء يدله على اقتراب الصلح والسلم. ومتى احتفل الناس بالصلح، الذى يشتهيه الجميع منذ زمن، فانى أرجو أن نحتفل به نحن أيضا

فى كنيستنا، فيمتزج صوت النواقيس بأنغام الأرغن، وقراءة صلوات الابتهاج بصوت البوق .

وبودى يا سيدى القسيس لو أن ولدى هرمن يُعقد له فى ذلك اليوم على العروس . فيتقدم بها بين يديك الى المذبح . فيكون ذلك العيد السعيد، الذى تحتفل به البلاد جميعا ، عيدا لسعادتنا المنزلية فى مستقبل الأيام .

وإنى ليَحزُنني أن أرى هـذا الشاب ـ على جده ونشاطه فى أعماله ـ ساكنا رزينا ، كثير الخجل والحياء، زاهدا فى رؤية الناس والتحدث إليهم . راغبا حتى عن صحبة الغيـد ، وعن الرقص وهو قبلة أنظار الشباب » .

كان الوالد يتكلم على هذا النحو ، ثم أمسك عن الكلام فجأة . وأخذ يصغى : فاذا صوت سنابك الخيل يقترب ويزداد جلاء ووضوحا . والضوضاء آخذة فى التزايد تدريجا؛ ثم سُمِعت عجلات مركبة مسرعة تجرى بصوت كأنه قصف الرعود . ووقفت فجأة لدى باب الدار .

....

النشيد الثانى

تربسيكورا (١) TERPSICHORE

(إلهة الرقص)

هرمن

دخل الابن الى الحجرة ، فاذا هو فتى حسن الصورة طويل القامة . . تلقّاه القسيس بنظرات حادة نافذة ، متأملا قوامَه وناقدا حركاته بعين الباحث الخبير ، الذى تخترق فِراسته الحجُب، ويستنبط الأسرار من غير عناء . وقال له بلهجة المخلص الأمين : « إنك لتعودُ إلينا إنسانا غير الذى عهدناه

(١) الموسا التى تنشد هذا النشيد هى إلهة فن الرقص . وفى الحق أن لا مناسبة بينها وبين ما فى هذا الفصل . ولا يعرف لماذا اختارها جوت دون غيرها عند التكلم عن هرمن وهو الذى ينفر من الرقص . على كل حال مادامت هنالك تسعة أناشيد فى الكتاب وفى الخرافات تسع ربات للفن . فلابد أن تتولى كل واحدة الاشراف على أحد هذه الاناشيد . ولابد فى بعض الاحيان ألا يكون هنالك تطابق بين ماهو معروف عن ربة الفن فى العرف وبين ماهو منسوب لها هنا .

وعرفناه . وما أحسبنى رأيتك يوما ووجهك ممتلىء بشرا وسرورا ، وفى ناظريك هذا البريق الذى أبصره الساعة . . إنك تقبل علينا فرحا طروبا . لأنك من غير شك قد قسمت الهدايا بين أولئك البائسين ، فدعوا لك أطيب الدعوات » .

فأجاب الفتى بألفاظ ، فيها جدٌّ وهدوء : « لست أدرى هل فعلت شيئا أحمد عليه . غير أنى فى كل ما عملت ، لم أفعل غير الذى أملاه على قلبى . وهأنذا أقص عليكم القصص كله :

« إنك يا أماه قضيت زمنا غير قصير فى جمع الأشياء وفى اختيارها . فلم تتهيأ الحقيبة إلا بعد لأى . وكذلك النبيذ والجعة، قد استغرق إعدادهما زمنا غير قليل . وحين انطلقت أخيرا من المنزل ، وسرت فى الطريق لقيت كثيرا من الناس راجعين أدراجهم بنسائهم وأطفالهم ، لأن جماهير اللاجئين كانوا قد ابتعدوا . فلما أدركت هذا الأمر ، ثنيت أعنَّة الخيل ووجهتها بسرعة تلقاء القرية ، وقد أُبلغت أنهم سيبيتون بها ليلتهم . . . .

« وبينما أنا أعدو بالمركبة فى الطريق الجديد ، إذ أدهشنى منظر مركبة ، ذات قضبان متينة ، يجرها ثوران من أشد الثيرة

قوة وأضخمها جسما ، وإلى جانبهما فتاة تمشى بخطًى ثابتة . وفى كفها عصا طويلة ، وهى تقود هاتين الدابتين ، على ما بهما من بأس وقوة، بحنكة وبمهارة : طورا تدفعهما للأمام، وتارة تردهما الى الوراء .

« وحينما أبصرتنى اقتربت من جوادىَ وقالت : « لم نكن دائما حليفى الشقاء كما ترانا الآن فى طريقنا هذا . وما اعتدت يوما أن أسأل الغريب عُرفا أو ألتمس منه صدقة . والناس قلما تهب عن رِضى بل لكى تتخلص من لجاجة السائل . أما اليوم فتدفعنى الحاجة الى الكلام : هنا قد اضطجعت على الحطب عقيلة رجل من ذوى اليسار ، لم أستطع إلا بشق النفس أن أنجو بها ، على هذه المركبة وبهذين الثورين وقد جاءها المخاض . وبعد ذلك وضعت طفلها، فلم نلحق بالآخرين إلا بعد حين . باتت وليس بها من الحياة إلا الذماء ، وبين ذراعيها طفلها الرضيع ، تحتضنه وهو عريان ؛ وهيهات أن يستطيع أقاربنا أن يمدوا الينا اليوم يد المساعدة ؛ ولئن كانوا سبقونا الى تلك القرية ، حيث نبغى المبيت ليلتنا هذه ، فانى أخشى أن يرتحلوا عنها قبل أن نصل اليها . فان كان لديك شىء

من كتَّانٍ ليست لك به حاجة وكنت من أهل هذا الحى فلا تبخل به على البائسين » .

« عند ما نطقت بهذه الكلمات ، رفعت النُّفَساء وجهها الشاحب من بين الحطب اليابس ، وجعلت تنظر إلى ؛ فقلت للفتاة : « إن الصالحين من بنى الانسان كثيراً ما توحى إليهم روح سماوية ، فيحسون ما ألم باخوانهم من متربة وما نزل بهم من ضيق ؛ وكذلك أمى العزيزة كأنما أُلهمت ما أتيتما فيه من عناء ، فأعطتنى هذه الحزمة ، وبها كل ما يسد حاجة ذلك الطفل العارى » : ثم حللت عقدة الحبل وناولتها جبة الوالد ، وشيئا من الثياب والقماش ، فشكرت لى صنيعى ، وقالت ووجهها يفيض سرورا : « ألا إن السعداء لا يدركون أنه لم تزل فى العالم معجزات تقع . أما فى وسط الشقاء فان الانسان يحس يدالله وبنانه القادرة ، حين تهدى الصالحين إلى صالح الأعمال . ألا فليسبغ عليك النعمة التى أسبغها علينا الآن بيديك ! » .

« ولقد رأيت النفساء وهى فرحة تلمس بيديها الثياب المختلفة ، كأنما سرها على الخصوص ملمس الصوف فى جُبة النوم . ثم قالت لها الفتاة : « لنسرع الآن الى تلك القرية ، حيث

تستريح الجماعة وتقضى ليلتها، ومتى بلغناها فسأبادر بتدارك كل ما يحتاجه الطفل، وكل ما يلزمنا . ثم أقرأتنى السلام، وبالغت فى شكرى على صنيعى، ثم دفعت الثورين، فانطلقت المركبة.

«أما أنا فتريثت قليلا، وحبست الجوادين عن السير برهة، فقد جعلت أُحس فى قلبى نزاعا، وجعلت أتساءل : أأنطلق إلى القرية مسرعا، وهنالك أقسم ما معى من الزاد بين سائر الناس، أم أكتفى بأن أعطيه كله لتلكم الفتاة، لتتولى توزيعه بينهم، بما أوتيته من حكمة وعلم، ولم يطل ترددى بل تبعت الفتاة على مهل، ولحقت بها بعد قليل، وقلتْ لها مصارحاً :

« أيتها الفتاة الصالحة! ان الذى أعطتنيه الوالدة ليس قاصرا على الثياب التى تستر الجسد العارى، بل أضافت إليها زادا وشرابا كثيرا . ولدىّ منه فى داخل المركبة شىء ليس بالقليل . وقد صحت رغبتى فى أن أضع بين يديك هذه الهبات أيضا، ولعل هذه هى خير وسيلة للقيام بما عهد إلى . فأنت بلا شك تتولين تقسيمها بعقل وتدبير، أما أنا فيكون اعتمادى على محض الصدفة » .

« فأجابت الفتاة قائلة : « سأتولى توزيع هباتك بأمانة ، ويجب أن ينعم بها من هم أشد احتياجا إليها » . وعنـد ذلك بادرت بفتح صندوق المركبة فأخرجت منه تلك القطع الكبرى من لحم الخنزير ثم الخبز فقناني النبيـذ والجعة . حتى لم يبق لدى شيء . وما أشد شوقى لأن أعطيها أكثر مما أعطيت لولا أن قد نفد ما فى الصندوق .

« وقد وضعت الفتاة تلك الهدايا جميعا عند أقدام المريضة، وربطتها ربطا محكما، ثم مضت فى سبيلها ، أما أنا فسقت الجوادين، راجعا أدراجى إلى البلدة » .

وعند ما أتم هرمن حديثه ، أخذ الجار الثرثار يتكلم فقال: « سعيد لعمرى فى هذه الأيام : زمن التشرد والاضطراب ، سعيد جدا من يعيش فى داره فريداً وحيداً ، لا زوجة تفزع إليه ولا ولد . ولهـذا أرانى اليوم سعيدا ، ولا أعدِل بحالى هذه شيئا . إذ لست أدعى والدا ؛ وما لى من طفـل أرعاه ، أو زوج أعنى بأمرها .

ولقد كنت غَـيْرَ مرةٍ أتوهم الهربَ، فأجمع الغالى

والثمين من المتاع : من نُقُود مدّخرَة ومن حُلِيٍّ خلفتها أُمىَ البرّة رحمها الله! ولم أُفرّط فى شىء منها حتى الساعة لكنى وجدت أن لا مفر من ترك الشىء الكثير مما لا يسهل الحصول عليه فيما بعد . ولقد يعز علىّ أن أدع ورائى تلك الأعشاب والجذور، وإن لم تكن بالشىء القَيِّم . فقد بذلت فى جمعها مجهودا غير قليل . بعد هذا اذا بقى مساعدى من ورائى ، فان فى هذا ما يعزينى على هجرى لمنزلى . ومتى نجوت بنقودى وبجسدى فقد أنقذت كل شىء ، وما أسهل النجاة على الرجل الوحيد ! » .

فقال له هرمن مؤكدا : « ما أرانى أيها الجار مقرًّا لك على ما تقول . بل أنى أعاتبك على التحدث بمثل هذا القول . أيجوز للرجل ذى الجدارة والفضل ، ألا يفكر وقت الشدة أو الرخاء إلا فى نفسه ، فلا تحرك قلبه عاطفة ؛ ولا يجد لذة فى مشاطرة غيره السرور والحزن . أما أنا فلعمرى ما أحسستُ كاليوم رغبة فى أن أرتبط برباط الزواج، فكم من فتاة صالحة تُعْوِزُها حماية الرجل القوى، وكم من فتى حلّ به الشقاء فبات فى حاجة الى امرأةٍ تبعث فى قلبه السرور » .

هنا ابتسم الوالد وقال: «أحْبِبْ إليَّ بسماع هذا الكلام منك! ولقلما سمعتك تنطق بمثل هذه الكلمات الحكيمة من قبـــل».

وقالت الأم على الأثر: «حقًّا بُـــنَيَّ نطقت بالصوابِ وإنَّك لترى فى والديك خير مثالٍ لماذ كرت. فلم يكن اليوم الذى ارتبطنا فيه يومَ سعادة ورخاء. وبِرَغْم هذا فان ساعات الشدة قد زادت رباطنا وثوقاً ومتانة...

«كان اليومُ يوم اثنين فى وقت الصباح. وإنى أذكر هذا جيِّداً إذ كان اليـوم التالى ليوم الحريق الهائل، الذى اجتاح مدينتنا الصغيرة ودمَّرها. ـ أجل ولقد مضى على ذلك اليوم عشرون عاماً كاملة. فقد كنا فى يوم أحد كما نحن اليوم، وكان الهواء حارًّا جافًّا ولم يكن بالمكان ماء إلا القليل. وكان الناس يتنزهون، مرتدين أحسن ثيابهم، وقد انطلقوا إلى القرى وإلى الحانات والأرحية. فاشتعلت النار فجأة فى طرف المدينة. ثم أخذت تجتاح الطرق بسرعة هائلة، وفى أثرها رياح شديدة التيار قد أثارتها النيران. ولم يمض قليلٌ حتى التهمت النار مخازن الغلال، بما تكدَّس فيها من محصول تلك السنة الغنية،

الـكثيرة الخيرات . واحترقت الطرقات جميعا حتى الميـدان . والتهمت النار دار والدي وكانت قريبةً من هنا ، كما التهمت هذه الدار أيضا . وما استطعنا أن ننقذ من متاعنا إلا القليل .

« فى تلك الليلة الليلاء بَقِيت ساهرةً عند المروج فى ظاهر المدينة ، أحرس الصناديق والفُرُش . الى أن غلبنى النُّعـاس فنمت ، وعند الصـباح أيقظتنى برودة الفجـر ، فنظرت فاذا الدخان المتصاعد والأنقاض الملتهبة بين الأسوار والمداخن العالية . . وقد انقبض لهذا المنظر صدرى .

« وبرغم هذا لم تلبث الشمس أن طلعت فى كامل رَوْعتها وبهائها ، فبعثت فى نفسى روح البسـالة والجلَد ، فنهضت على عجل ، وانطلقت وبنفسى رغبةٌ مُـلحةٌ فى أن أتفقد الموضع الذى كانت فيه دارنا ، ولأنظر لَعَلَّ دَجاجنا قد نجا ، فلقد كنت أحبه حبًّا جمًّا ؛ وكنت بعدُ فى مثل سذاجة الأطفال .

جعلت أمشى فوق أنقاض الدار والحديقة؛ ولم يزل يتصاعد منها الدخان ، وقد أصبح المسكن الأمين قفرا بلقعًا . ورأيتك فى تلك الساعة مقبلا من الناحية الأخرى تتفقد المكان ، وكان جواد من جيادك محتبساً فى الاصطبل المدمَّر . وقد تكدست

فوقه كتل من الخشب المحترق والأنقاض المضطرمة : بحيث لم يكن للجواد أثرٌ يرى .

وهكذا كنا واقفين : أحدنا قبالة الآخر ، مطرقين حزينين ، وقد تداعى الجدار الذى كان يفصل بين دارينا . فقبضت أنت على يدى وقلت لى : « ما الذى جاء بك الى هنا ياليزا ؟ ابتعدى فانك تحرقين نعليك ! فان بالانقاض ناراً حامية تحرق نعلىّ ، على مابهما من غلظ ومتانة . . ثم حملتنى بين ذراعيك وأخرجتنى من فناء منزلكم ، الذى التهمته النيران ، فلم تبق منه سوى الدّهليز الكبير بقوسه المعقودة ، على نحو مانراه الآن . وهناك أنزلتنى ، وجعلتَ تلثِمنى ، وجعلتُ أدفعك عنى ، فتكلمتَ عندئذ بكلمات تنِمُّ عن الحب المتين ، كما تنمُّ عن العقل الرصين . فقلت : أنظرى الى الدار ، كيف غدت أثرًا بعد عين ! فلا تبرحى أو تساعدينى لأقيم بناءها ، وأشيد صرحها . وأنا كذلك سوف أعاون أباك على بناء داره .

« لم أفهم لأول وهلة معنى هذه العبارات ، حتى جاءت أمك الى والدى ، وعُقِدَ لنا — على عجل — زواجٌ ناعمٌ سعيد . . ومازلت الى اليوم أذكر ، فى شيء من السرور ،

تلك الأنقاض المضطرمة ، وأرى ماثلة أمام عيني شمس ذلك اليوم ، وملؤها الروعة والجلال . فلقد رُزقت الحليل فى ذلك اليوم ، ورزقت بعـــد قليل ولدى البكر ، والمدينة بعدُ خراب بلقع .

« من أجل هذا ، ياهرمن ! أحمد لك هذا الايمـان ، وأناشدك أن تبادر فتختار لك فى هذه الأوقات العصيبة ، فتاةً صالحة . تخطبها ، على رغم هذه الحرب الضروس ، وما بها من تخريب وتدمير . »

وتكلم الوالد بشىء من الحماس قال : « ألا إنه لخاطرٌ سعيد ما قد خطر لك أيتها الوالدة . والحكاية التى قصصتها صحيحة فى كل جزء من أجزائها . ولكن هنالك حال خير من تلك الحال . فليس بمُقَدَّرٍ لكل إنسان أن يبتدىء حياته من جديد . فيجد وينصَب ، كما كنا نحن نجد وننصب . وإنما السعيد حقا من أسلمه الولدان داراً عامرة ، ثم يتسع رزقه فيزيد فى جمالها وزينتها .

« إن البدء فى كل شىء أمر عسير ، وعسير بنوع خاص البدء فى إقامة منزل وعمارته . وحاجات الانسان كثيرة

متعددة ، وأثمانها تزداد فى كل يوم . فيبذل المرء جهده كى يزداد ماله . . ولهذا أرجو ياهرمن أن تبادر بعد قليل باختيار زوجة طيبة ، تدخل هذه الدار ومعها مهر صالح . والفتى الصالح أوّلى الناس بالزوجة ذات اليسار . وهو جدير وحقيق بأن تدخل اليه الحسناء ، تتبعها الصناديق والأسفاط ، فيها الهدايا النافعة . وليس من العبث أن تقضى الأم السنين الطوال ، فى إعداد الأقمشة ، التى تجمع بين الدقة والمتانة من أجل ابنتها ، وليس من العبث أن يُهدى الأقرباء ما عندهم من الأوانى الفضية . وأن يفتش الوالد فى داخل أدراجه عما خبأ فيها من قطع الذهب النادرة الوجود . ليس هذا كله عبثاً ، لأن الفتاة ، بكل هذه الهدايا والمِنح ستشرح صدر عروسها ، الذى اختارها واصطفاها على سائر النساء .

وإنى لأعلم ما تُحِسُّهُ الزوجة الفتاة من ارتياح واغتباط ، حين تنظر الى البيت الذى اتخذته داراً لها ، فترى فى المطبخ وفى كل حجرة من الحجرات أوانيها التى جلبت معها ، والفراش الذى فرشته ، والمائدة التى أعدتها هى وبسطتها . . أجَلْ وإنى لَمُصِرٌّ على ألاّ تدخل هذه الدار إلا عروس مجهزة مشوّرة .

فان الفقيرة لا تلبث أن يَحقِرها زوجها ، وينظر اليها كما ينظر إلى الخادم . إذ دخلت الدار وليس معها إلا حقيبة خادم . والرجال قليلو الانصاف وأوقات الغرام سريعة الزوال . .

« أجل ياعزيزى هرمن ! لتملأنّ كهولتى سروراً لو أنك أسرعت ، فاقتدت الى هذه الدار عروساً من فتيات هذه الناحية ، بل من بنات جيراننا : من تلك الدار الخضراء التى أمامنا . والرجل لعمرى من السَّراة ، وله تجارة وصناعة يزداد بهما فى كل يوم غنى : وأى التجار لا يكسب ويربح ؟ وليس له من البنات إلا ثلاث . ستؤول اليهن وحدهن كل تلك الثروة ، أما الأولى فقد خطبت وقضى الأمر ؛ وبقيت الثانية والثالثة . ولكن لن تبقيا هكذا طويلا . ولو كنت مكانك ماترددت حتى الساعة . بل لبادرت فظفرت باحدى الفتاتين . كما فزْتُ أنا من قبل بأمك العزيزة . »

* * *

لم يجد الفتى بُدًّا ، أمام إلحاح والده وإصراره ، من أن يجيب على مقاله . فقال فى تواضع وحياء : « لقد كانت إرادتى من قبل وفق إرادتكم اليوم : أن أختار إحدى بنات جارنا . فلقد

نشأنا ورُبينا معاً . ولطالما لعبنا معاً في تلك السنين الغابرة لدى البئر التي في الميـدان . وكثيراً ما وقفت دونهن ، أدفع عنهن شراسة الصبيان . بيد أن هذه أيام قد خلَت . وقد وقَر الفتيات في دارهن بعـد أن كبِرن . وأصبحن اليوم بعيدات عن ألعابنا الخشنة .

« أما أدبهن العالى فأمر مسلم به . ولقد كنت أختلف الى دارهن من حين الى حين ، تبعاً لارادتكم ، واستبقاء للمودة القديمـة . ولـكنني ما أحسست يوماً سروراً أو اغتباطاً بصحبتهن والتحدث اليهن . فلقد كن دائما يجدن فيّ موضعاً للنقـد واللوم . وكان على أن أتقبل هذا كله منهن ! فأحياناً ألام لأن ردائي طويل وقماشه خشن ولونه قبيح ذميم . وآونة ألام لأني لم أحسن تصفيف شعرى وتجعيده . حتى لقد صممت أخيراً أن أتأنق في ملبسي وأتزوق ، كما يفعل أولئك الفتيان من أولاد التجار ، الذين القاهم أبداً هناك في الآحاد ، والذين تتدلى قطع الحرير من ثيابهم دائما في فصل الصيف . لـكني لم أكد أفعل ذلك ، حتى جعلن يسخرن مني . فكان هذا مؤلماً لنفسي ، جارحا لـكبريائي . على أن الذي

اسقمنى وعنانى حقاً أنهن كن ينكرن منى كل كلمة طيبة أونية صالحة اتقرب بها اليهن جميعاً .والى (مينا) الصغرى خصوصاً فلقد ذهبت لزيارتهن فى عيد الفصح الاخير ، ولبست فى ذلك اليوم ثوبى الجديد ، وهو المعلق فى الخزانة الآن ، ولبست شعراً مستعاراً مصففاً شأن بقية الفتيان ، لكنى لم أكد أدخل حتى جعلن يتخالسن الضحك . فلم أبد اشارة ، كأن غيرى المقصود بهذه السخرية .وكانت (مينا) جالسة الى البيانو ، وكان والدهن جالساً يصغى منشرح الصدر ، وقد أطربه غناء ابنته ، أما أنا فقد إستعصى على ادراك الكلمات التى اشتملت عليها الاغانى . ولكنى سمعت اسمين يترددان المرة بعد المرة وهما (پامينا) و(تامينو)(١) ولم أرد أن أبقى صامتاً لا أنطق بحرف. فلما إنتهى الغناء جعلت أسأل عن القطعة وعن ذينك الشخصين ، فسكت الجميع وهم يبتسمون . ثم نظر إلى أبوهن ، وقال : أليس صحيحاً ياصديقى أنك لا تعرف من بنى الانسان غير

(١) Pamina و Tamino شخصان فى إحدى أوپرات موزار الشهيرة وهى الناى المسحور (Zauber floete) . وفى السنة التى تجرى فيها حوادث هذه القصة (حوالى سنة ١٧٩١) كانت هذه الأوپرا بعد حديثة جدا ، فلا ينتظر من فتى ساذج مثل جرمن أن يكون قد علم من أمرها شيئا كثيرا .

آدم وحواء؟ » عند ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن يمسك نفسه ، فأغربت الفتيات فى الضحك ، وأرعد الفتيان ضاحكين ، وقبض الوالد على بطنه بيديه. وملكتنى أنا الحيرة فسقطت قبعتى من يدى . وبقى الجميع ممعنين فى الضحك ، حتّى أثناء العزف والغناء . ولم أطق صبراً على كل هذا فعدت مسرعا الى منزلى ، وأنا نهبة للكآبة والخجل . فخلعت تلك الثياب وأودعتها الخزانة ، وانتزعت ذلك الشعر بأصابعى . وأقسمت لاوطِئَت رجلى عتبة دارهن بعد ذلك اليوم . وحق لى هذا فان رُءوسهنّ قد امتلات بالغرور والخيلاء ، بقدر ما خلت قلوبهن من الحب .

ولقد علمت أنى مازلت أدعى فى دارهن (تامينو) الى وقتنا هذا»

فقالت له الام : « ما ينبغى لك ياهر من أن تطول موجدتك على أولئك الطفلات — وما هن فى الحقيقة الاطفلات — ومينا الصغيرة فتاة صالحة ، وكانت أبدا تعطف عليك ومنذ عهد قريب كانت تسألنى عنك . وتحسن لو اتخذتها زوجا لك»

فأجاب الفتى مفكراً : « لست أدرى ، غير أن الكدر الذى استولى على ذلك اليوم قد ترك فى قلبى أثراً عميقاً . فبت وما

بى رغبة لرؤية مينا ولا للانصات الى عزفها وغنائها .»

وتكلم الوالد فى شىء من الحدة والغضب فقال: «ما أرانى واجداً منك شيئاً ترتاح اليه نفسى . ولطالما قلت لك هذا مراراً وتكراراً. حينما كنت أراك وليست لك فى الحياة لذة سوى الاهتمام بالمزرعة وبالخيل . وتلك لعمرى أعمال يؤديها غلام من غلمان السادة ذوى اليسار . فكيف لمثلها ينصرف الابن بدلا من أن يقوم بما يرفع رأس أبيه بين أهل المدينة. ولطالما كانت أمك تعللنى بالأمانى الكذاب؛ حينما كنت عاجزاً وأنت بالمدرسة، عن تعلم الكتابة والقراءة وحفظ الدروس كما يفعل سائر الفتيان. فكنت الاخير من بينهم جميعاً. ولعمرى لقد كانت تلك حالا لا مفر منها ، مادام صدر الشاب خالياً من الشمم والكبرياء. فلا يطمح ببصره الى المعالى.. آه لو أن أبى عنى بأمرى عنايتى بأمرك. فأرسلنى الى المدرسة وخصص لى المعلمين والمؤدبين! أجل لو أنه فعل هذا لكنت اليوم شيئاً آخر غير صاحب خان (الاسد الذهبى).

عندذلك نهض الغلام واقترب من الباب فى صمت وفى سكون وهدوء يريد الخروج لكن الوالد أتبعه هذه الكلمات وهو

حانق غاضب : « أجل فلتذهب ولتنصرف عنا ! وأنا عالم بما في رأسك من عناد واصرار . اذهب اذن وانظر فى شئون الدار والمزرعة . كى لا أسمعك من التقريع أمرّه وأقساه ! لكن حذار أن تجلب يوماً الى هذه الدار فتاة من بنات الفلاحين رعاة الابقار لتكون لابنى زوجا ! لقد عشت طويلا وتعلمت كيف أعاشر الناس وكنت أحتفى بهم . فيرجعون قريرى الاعين، منشرحى الصدر. وتعلمت كيف ألاطف الغريب وأدخل على قلبه السرور . ولهذا لابد لى فى النهاية من أن تكون كنّتى فتاة طيبة . تنسينى بحلاوة خلقها ما قاسيت من مرارة وعناء . ولا بد أن تجيد العزف على البيانو . ولابد أن تصبح دارى ملتقى الطبقات الأنيقة من أهل المدينة . يفدون اليها ويقبلون على زيارتنا كما يفعلون أيام الآحاد فى دار جارنا .»

وهنا أمسك الفتى بمزلاج الباب . وفتحه بسكون وغادر الحجرة .

النشيد الثالث

طاليا[1] THALIA

(الهة الكوميديا)

سكان المدن

هكذا اعتصم الفتى المتواضع بالفرار، هرباً من ذلك الخطاب العنيف . .

غير أن الوالد لم تهدأ ثائرته، وعاد الى الكلام كما بدأ . فقال : « انك لن تستخرجَ من إنسانٍ ما ليس فيه . وهيهات أن أشهد تحقيق أمنيتى العزيزة التى أتمناها أبدا : وهى أن الولد يجب ألا يكون مشابها لأبيه ، بل أعلى منه درجات . وإلاَّ

---

(١) فى هذا الفصل يسخر المؤلف بالطبقات المتوسطة (البورجوا) . وكلمة « سكان المدن » لاتؤدى تماما معنى بورجوا ؛ فهؤلاء عادة جماعةذوو يسار يتشبهون بالخاصة ولكن عقليتهم السطحية تقربهم من العامة . فالهة الكوميدا اذن تلائم هذا النشيد تماما . وصاحب الفندق يمثل هذه الطبقة أحسنَ تمثيل هو والصيدلى .

فأين يكون مصير الأسرة، بل مصير المدنية كلها، اذا لم يكن همَّ كل فرد أن يحرص على تالده، ويستحدث الطريف الجديد، ويعنى أبدا بتحسين ما لديه؟ . .

« ذلك هو الدرس الذى علمنا إياه الزمان . كما علمتنا إياه البلاد الأخرى . . وما ينبغى للانسان أن يكون مثله كمثل نبات (عيش الغراب) ، ينمو فى الثرى ، ثم يدركه العطب فى المكان الذى نماه وأخرجه ، دون أن يترك وراءه أثرا فيه مظهر من مظاهر الحياة .

« وحسب المرء نظرةٌ يلقيها على الدار ليعلم من صاحب الدار ، وما مبلغ ذكائه وعقله . كما نعلم كيف تُدار المدينة وكيف تحكم لمجرد خطوات نخطوها فى طرقاتها (١) . فحيث ترى الأبراج قد تداعت ، والأسوار قد مالت . والخنادق والأزقة قد تكدَّست فيها القمامة وحيث الأحجار قد تقلقلت فى كل بناء ، فلا ترد الى مواضعها . وحيث الدعائم توشك أن تَنْهار ، والحاجة مُلِحة الى دعائم جديدة . فحيث ترون ذلكم كله

---

(١) يجب تنبه القارىء الى أن المانيا فى ذلك الزمن كانت مقسمة عدة وحدات مستقلة . تتركب أحيانا من مدينة صغيرة وقطعة من الارض تحيط بها .

فأيقنوا أن المدينة قد ساءت حكومتها . . لأن الطبقات العليا اذا لم تفرض النظافة والنظام فرضا على من دونها، فسُرعان ما يعتاد أهل المدينة القذارة والاهمال، كما يعتاد الشحاذ لبس الرداء الخلق .

« كثيرا ما وَدِدت لو أن هرمن يبادر بالقيام ببعض رحلات . . فلا أقل من أن يزور استراسبورج وفرانكفورت، ويرى مدينة مانهيم الجميلة البناء والتنسيق . فان من شاهد المدن الكبرى وما بها من نظافة ورُواء، فلن يقرّ له قرار حتى يعجل بتجميل مدينته مهما كانت صغيرة .

« أرأيتم كيف يعجب الغرباء بأبواب مدينتنا بعد إصلاحها، وبالبرج الناصع البياض، وبالكنيسة بعد تجديدها؟ أليس الكل معجبا بطرقنا المرصوفة، وبالقنوات ذات المياه الجارية المغطاة، المنتشرة فى كل ناحية . وهى على كثرة فائدتها مصدرٌ للسلامة والأمن، وبواسطتها استطعنا مكافحة النيران عند بدء اشتعالها .

« فحدثونى بالله، ألم تتم هذه الأعمال كلها منذ ذلك الحريق المروع ؟ ولقد كنت فى مجلس المدينة ست مرات، متوليا رآسة الأعمال العامة ، فقمت بما جعلنى جديرا بأن يهتف لى

أهل المدينة وأن يبذلوا لى جزيل شكرهم . فلقد كنت أقترح الخطط ، ثم أمضى فى تنفيذها، بل وفى تنفيذ مااقترحه سواى من أهل المدينـة ثم عجزوا عن إكماله وإتمامه . واخيرا دب الحماس فى أعضاء المجلس جميعا ، فجعل كلٌّ منهم يجد ويدأب . حتى لقد أصبح فى حكم المقرر إنشاء ذلك الجسر العظيم الذى يصل المدينة بالطريق الجديد .

« لـكنى أخشى كثيرا أن الشباب لن يتخذنا مثالا وقدوة، فهم إمّا فريق لا يفكر فى غير السرور والملذات ، ولا يعنى بغير الأنيق من اللباس ، والتافه من الأمور . وفريق آخر يقبَع فى عقر داره ، ويختفى وراء موقد النـار مدى الحياة . . وإنى لأخشى أن هرمن سيبقى أبدا من هذا الطراز » .

فقالت الأم وهى تلك المرأة الصالحة العاقلة : « انك أيها الوالد ما كنت يوما منصفا لابنك . وانك بهذا تجعل من العسير أن يتحقق رجاؤك فيه .

وليس فى وُسعنا أن نكوّن أبناءنا وفقا لأهوائنا . أليسوا هبةً وهبنا الله إياها ؟ فما علينا إلا أن نحرص عليهم، ونبذل لهم كل حب ورعاية ، ونحسن تربيتهم بقدر استطاعتنا ، وبعدذلك

تركهم وشأنهم. فان لكلٍّ منهم مواهب، يستخدمها وينتفع بها، غير مواهب الآخرين. ولن يصيب الواحد منهم صلاحا أو سعادة فى الحياة إلا بما يقتضيه مشربه ونزعته.

«وانى لن أسمح لأحد أن يضع من قدر ولدى هرمن، وأنا أعلم علم اليقين أنه حقيق وجدير بتلك الثروة التى ستؤول يوما إليه.. فهو ربُّ منزلٍ قلّ أن يوجد له نظير. ومثال يقتدى به أهل الحضر وأهل الريف على السواء. وأرى من الآن، وأنا واثقة مما أرى، أنه لن يكون الأخير فى مجلس المدينة ودار ندوتها. لكنك بهذا اللوم والتقريع، فى كل لحظة وآونة، تكدر صفاءه، وتجعل صدره ضيقا حرَجا، كما فعلت الساعة».

وبعد أن قالت هذه الكلمات، غادرت الحجرة مسرعة، تبحث عن نجلها، لعلها ان لقيته أن تأخذ فى ملاطفته ومؤانسته، وأن تعيد السرور الى قلبه. وهو بهذا كله جدير.

* * *

ولم تكد الأم تخرج حتى ابتسم الوالد، وقال:

« حقاً إن النساء لجنس غريب؛ وما هن فى الحقيقة إلا كالأطفال، تسير كل واحدة منهن حسب ما يمليه هواها، وعلينا نحن أن نسترضيهن بالملاطفة حينا، وبالثناء عليهن حينا.

« غير أنى ما زلت مصرا على صحة ذلك المثل الذى علمنا القدماء إياه وهو: من لم يسر إلى الامام، رجَع القهقرى ».

فقال جارهم الصيدلى متمهلا، كأنما يزن الكلام وزنا(١):

«أوافقك كل الموافقة على ما قلت. وأنا نفسى أتلمَّس الأحسنَ وأنشده دائما؛ على شرط ألا يكون غالى الثمن، مع جودته وجدّته. وإلا فما اذا يجدى على الانسان دأبه وجده فى اصلاح ما لديه، ظاهراً وباطنا، إذا لم يكن كيسه مفعما بالمال؟ ان ساكن الحضر محدودة موارده جدًّا، فهو قد يرى الشيء الصالح فلا تجرؤ نفسه أن تشتهيه، وما دام كيسه قليل النقود وحاجاته كثيرة العدد، فلا عجب اذا رأيته أبدا عاجزا، مكتوف اليدين.

« وأنا نفسى أود أن أقوم بأعمال شتى؛ لكن من ذا الذى

---

(١) جعل المؤلف من هذا الصيدلى مثلا للرجل الذى يقول أتفه الأقوال بشكل من يتكلم كلاما ذا أهمية كبرى. ولهذا هو يزن كلماته وزنا.

لا يحجم ولا يتردد أمام النفقات الباهظة ، خصوصا فى هذه الأزمنة الخطيرة؟ فمنذ عهد بعيد أفكر فى تنميق منزلى وتجميله طبقا للمشرب الحديث: بحيث يصبح لنوافذه الفسيحة زجاج كبير لامع برّاق . ولكن مَن مِنَّا يستطيع أن يقتدى بذلك التاجر الذى يعرف على رغم كثرة أمواله . كيف يحصل على أحسن الأشياء بأبخس الأثمان ؟ أنظر الى داره الجديدة التى بناها قبالتنا ! ما أجمل أعمدتها اللّولَبية البيضاء ومن ورائها الحديقة الخضراء . وانظر إلى زجاج النوافذ وحجمه الكبير! وكيف يلمع كأنه مرآةٌ وضيئةٌ . حتى لقد تلاشت بجانبه سائر المنازل فى هذا الميدان . . . ومع ذلك ألم يكن بيتى (صيدلية الملاك) وبيتك أنت (الأسد الذهبى) أحسن بيوت هذا الميدان جميعا بعد الحريق بزمن وجيز ؟ ولقد كانت لحديقتى شهرة فى سائر الاقليم . وما من مسافر إلا وقف لديها لحظة ينظر من خلال السياج الى التمثال الحجرى للشحاذين ، والصورة الملونة للأقزام . ولكم دعوت الأضياف الى تناول القهوة فى الغار المشيد بالحديقة ـ وهو الآن قد أخذ يتداعى ويعلوه الغبار ـ فكانوا جميعاً يعجبون أشد الاعجاب بذلك الضياء المتعدد الألوان المنبعث من القواقع

المنضدة أحسن تنضيد . . وكان الخبير بهذه الأشياء ينظر حائرا إلى لمعان الرّصاص والمرَجان المصطنع . وكذلك كانوا يعجبون بصورة فى الصالون تمثل سيدات وسادة يتنزهون فى الحديقة ، لابسين أبهى الثياب ، ويتناولون الأزهار بأيديهم، أو يمسكونها بأطراف الأصابع .

« أما الآن فمن ذا الذى يلقى بمجرد النظرة على شىء من هذا ؟ إنى أنا نفسى - لشدة غيظى - قلما أخرج الى الحديقة الآن . وقد أصبح من الواجب تغيير كل شىء ، لكى يصبح وفاقا للذوق الحديث كما يزعمون . ويجب أن تُطلى الأخشاب جميعا باللون الأبيض وكذا المقاعد الخشبية . ويجب أن يكون كل شىء بسيطا خاليا من كل حلية . فلا ينبغى أن تكون هنالك أخشاب محفورة أو مذهبَة . والأخشاب الأجنبية هى أعز أنواع الخشب وأغلاها .

« ولهذا ترانى على شدة ولعى باقتناء الجديد ورغبتى فى مسايرة الزمن ، بأن أُغيّر وأبدل أثاث المنزل من آن لآن؛ أجد الناس جميعا يحجمون حتى عن تبديل أقل الأشياء ، وأصبح العمال بحيث لا يستطيع أحد دفع أجورهم .

« ولقد خطر لى حديثا أن أكلف من يقوم بتذهيب الملاك ميكائيل ، وهو كما تعلم شعار الصيدلية ، وكذا التنين المخيف الملتف حول رجليه . ولكنى اضطررت ، لارتفاع الثمن ، أن أتركه ليكتسب اللون الأسود على مضى السنين . »

....

النشيد الرابع

يوتريا EUTERPE

(الهة الشعر الغنائى)

الأم وابنها

وبينما الرجال يتجاذبون أطراف الحديث : ويلتمسون فى الحديث ما استطاعوا من لهو وتسلية ، كانت الأم منهمكة فى البحث عن فتاها . فتفقدته أولا خارج البيت على المقعد الحجرى الذى اعتاد الجلوس عليه . فلمّا لم تجده هناك انطلقت الى الاصطبل لعله قد ذهب هناك : الى تلك الصافنات الجياد ، التى اشتراها وهى أمهار ، وأبى أن يقوم على رعايتها أو يُعنى بها أحد سواه .

أنبأها الخادم أن مولاه انطلق الى الحديقة ، فجعلت تجتاز الفناءين على عجل ، تاركة وراءها الاصطبل ، والإجران

المحكمة البناء . ودخلت الحديقة : فاذا هى فسيحة الأرجاء ، قد امتدت الى سور المدينة ؛ وقد أقرَّ عينها ما رأته فيها من نماءٍ وازدهار . فجعلت تقيم المتداعى من الدعائم التى تستندعليها غصونُ التفاح ، أو فروعُ الكمثرى ، المجلَّلة بالثمار . وتنتزع الحشرات والديدان عن الكرنب الذى أمعن فى النمو . كانت تعمل هذا كله وهى سائرة فى طريقها ، لأن المرأة النشيطة لا تخطو خطوة خلوا من النفع والفائدة .

وأخيراً وصلت الأم الى نهاية الحديقة ، حيث الجوسق يكسوه الياسمين . لكنها لم تجد للفتى أثراً لاهنالك ولا فى سائر الحديقة . بيد أنها لاحظت أن باب الجوسق منفتح قليلا وهو باب صغير قد رُكِّبَ فى سور المدينة . وهذا دليل الحظوة والرعاية التى نالها أحد الأجداد إذ كان للمدينة عمدة من خيار العمد .

خرجت الأم من ذلك الممر الى ما وراء السور . وهنالك أبصرت الكروم يحيط بها سياج متين الصنع : وقد غُرست على منحدرات تسطع فيها أشعة الشمس . وقد امتدت عُرُوشُها صاعدة على تلك المنحدرات .

صعدت الأم وسط هـذه العرائش ، وقدراقها ما رأته من وفرة العناقيـد . حتى ما تكاد الأوراق أن تخفيها . وكان بين العُرُش طريق مُظَلَّل يَرْتقى الى أعلى الكثيب . ويُصْعَدُ اليه بدرجات غير منتظمة من الحجر . ومن العُرُشِ كانت تتدلى عناقيد العنب الرَّازِقى والمسكاتى ، والى جانبها عنب بَنَفسَجىُّ اللون ، قد امتاز بحباته الضخمة .

هذه الكروم جميعاً قد غرست من قبل بجد وعناية ، لكى تتحلى بثمارها مائدة الضيوف بالفندق . وعلى الكثيب ، غير هذه العرش ، شجرات مبعثرة حباتها أصغر حجما ، ومنها تعصر تلك الصهباء الغالية .

جعلت الأم تصعد الكثيب ، وقلبها يحس السرور سلفاً لاقتراب الخريف ، ولما يؤْذِنُ به من أعياد يحتفل فيها أهل الناحية . فيجتنون أطيب العناقيد ، ثم يدوسونها بأرجلهم (١) ويجمعون العصير فى الخوابى . وفى المساء ـ تكريماً للغلة الوافرة ـ تُرى الألعاب النارية وهى تملأ الفضاء بأضوائها وضوضائها .

---

(١) عصر الخمر بواسطة الأرجل (بعد غسلها بالطبع) كان شائعا فى ذلك الوقت . كما أنه ذائع فى مصر لاستخراج الزيت من بعض البذور مثل السمسم وغيره .

لم تلبث الأم أن ازداد قلقها ، حين نادت ولدها مَثْنى وثلاث . فلم يجبها غير رجع الصدى ، تردده أبراج المدينة . . . ولم يكن من عادتها أن تفتش عنه ، ولا من دأبه أن يذهب بعيداً . وما كان له أن يذهب دون أن ينبئها بذهابه كي يَهدَأ روعها ، ويطمئن قلبها .

على أنها لم تزل ترجو أن تلقاه فى هذا الطريق ، لأنها رأت أن بابى الكرمة : الأسفل والأعلى ، كلاهما مفتوح . فاجتازت البابين الى الحقول التى بظهر الكثيب ، وهى أيضاً من ممتلكات الأسرة . وقد سرها منظر البُرّ . قد مالت سنابله مُوقَرَةً بما تحمل من حَبٍّ ذهبي .

جعلت تمشى وسط المزرعة فى ممر ضيق . ووجهتها دوحة الكمثْرَى القائمة على ربوة تلى الكثيب . وهى الحد الذى تنتهى اليه ممتلكات الأسرة .

وهذه الدوحة علم بارز ، تلمحه العيون من سائرأطراف الاقليم ، ولثمارها شهرة واسعة ؛ ولا يعرف أحد من الذى غرسها . . وكثيراً ما يأوي اليها الحاصدون ورعاة الأبقار ، فيجلسون فى ظلها ساعة الظهيرة ، ولهذا كان تحتها مقاعد من

الحجر الخشن والعشب اليابس .

ولم يكذب ظن الأم ، فلقد كان هرمن هناك حقا ، كان جالساً فى ظل الشجرة معتمداً ذراعيه . وكأنما ينظر إلى الجبال ، مولياً ظهره إلى الناحية القادمة منها أمه . فتقدمت هذه نحوه فى هدوء ورفق ، ولمست كتفه بيدها . فالتفت اليها فجأة ، فرأت الدمع يترقرق من عينيه .

فقال لها وهو كالمأخوذ : « أماه إنك أتيتنى على غرة ! » وجعل يكفكف دمعه على عجل .

فقالت الأم ، وأحزنها ما رأته : « ما هذا ، أتبكى يابنى ؟ إنى أنكر هذا منك ، وما عهدتك يوماً بالذى تدمع عيناه ! قل لى ما الذى انقبض له صدرك وألمت له نفسك ، ودفع بك الى الانفراد فى ظل هذه الشجرة ؟ ولم يكفك هذا حتى جعلت تذرف الدمع ؟ »

فتمالك الفتى نفسه وقال : « إن الذين لا تأخذهم عاطفة رحمة على أولئك الشريدين ، هم أناس صدورهم من نُحاس ، وليس بين جوانحهم قلوب . وقليل العقل جدا من لا يُعنى فى هذا الزمن العصيب بسعادته وسعادة وطنه . . ولقد ألمت

نفسى اليوم لما سمعته بأذنى وما أبصرته بعينى ، ونظرت الآن الى ما حولى : فرأيت هـذه المزارع المترامية الأطراف . تكسو الكثبان والسهوب ، المحيطة بنا من كل صوب : ورأيت السنابل الذهبية ، وقد مالت تنتظر الحصاد . والفاكهة اليانعة وتوشك أن تكتظ بها خزائننا . . . ولكن ماذا يجدى هذا كله والعدو على أبوابنا ؟

« ولئن قيل إن نهر الرين بتياره المتدفق يحمينا ويعصمنا ، فأى نهر وأى جبل يستطيع أن يقينا بأس ذلك الشعب المخيف ، الذى يزحف علينا كأنه الريح العاصف ذات البروق والرعود . وهاهم أولاء قد أهابوا برجالهم شباناً وشيباً ، واحتشدوا زمرة فى إثر زمرة ، وفوجاً وراء فوج . وأخذوا يزحفون علينا بعنف ؛ وهم فى عديدهم الهائل لا يرهبون الردى ، ولا يُفَلّ لهم عزم . ثم بعد هذا نرى من الألمان من يجرؤ على البقاء فى داره ، كأنما سولت له نفسه أنْ سوف يُفلت مما يتهدد الناس جميعاً من الويل والثبور .

«فيا أيها الأم العزيزة ، إنى اليوم كدت أتميّزُ من الغيظ ، إذ ذكرت أنهم قرروا اعفائى ، حينما اختاروا المقاتلين من

أهل المدينة . لست أنكر أنى الابن الوحيد ، وأن بيتنا كبير ، وأعمالنا ذات شأن وخطر . ولكن أما كان أجمل بى وأجدر أن أقف هناك على الحدود مدافعاً ومانعاً ، من أن أبقى هنا أنتظر الشقاء والاستعباد ؟ أجل وبهذا تحدثنى نفسى . وإنى لَأُحِسُّ فى أعماق قلبى بأساً وعزماً يدفعاننى لأن أحيا للوطن وأموتَ للوطن ، وأكون للآخرين قدوة ومثلا .

« ولعمرى لو أن شباب الألمان بكامل قوتهم احتشدوا على الحدود ، مجمعين على ألا يَهِنوا أمام العدو ؛ إذن لما استطاع أن يطأ هذا الثرى العزيز بأقدامه ، وأن يلتهم ثماره اليانعة أمام أعيننا ، وأن يتحكم فى رجالنا ، وأن يسلبنا نساءنا وبناتنا .

« انظرى يا أماه ! إنى قد قرَّ رأيى ، وصح عزمى على أن أبادر الساعة ، بل هذه اللحظة ، الى إمضاء ما أراه عدلا وصواباً . . ولا خير فى تفكير طويل ، قد لا يَهدى الى الرشد دائماً . وما من داع إلى أن أعود الى دارنا ؛ بل أنطلق من هنا الى المدينة رأساً ، فأقدم الى الجند هذه الذراع وهذا القلب من أجل خدمة الوطن » .

« فهل يصر الوالد بعد هـذا على أنى لست ممن يجيش بصدرهم طبع كريم ، أو يتطلعون بأبصارهم الى المعالى ؟ »

سالت عبرات الأم الطاهرة — وهى سرعان ما تدمع عيناها — وأجابته بعقل وروية : « أى طارىء يابُنى قد بدل من طبعك ومن خلقك ، فأصبحت لا تخاطب أمك بتلك الصراحة التى عودتها إياها بالأمس ، وقبل الأمس . وأمسيت وما تحدثها بحقيقة ماتضمره وما تريده ؟ لو سمع قولك الآن ثالث لخدعته عبارتك وحديثك الخطير : ولأثنى عليك أطيب الثناء ، وحكم بأن عزمك هذا من أشرف الأمور وأجلها .

« أما أنا فانى ألومك ، لأنى أدرى بك وأعرف . . . إنك تكتم فى قلبك سرا ، وتخفى خلاف الذى أبديت . . وأنا أعلم أنك لست ممن يستهويهم دق الطبول وصوت الأبواق ، ولا ممن يلذ لهم أن يظهروا أمام الفتيات فى ثوب الجندية البراق . وبرغم ما أنت عليه من شجاعة وإقدام ، فان مهنتك التى تهواها هى أن ترعى المنزل ، وتعنى بالمزرعة . إذن فلتجبنى إجابة صريحة : ما الذى دفعك الى ما عزمت عليه ؟ »

فأجاب الفتى : « لقد أخطأ ظنك ياأماه ! فان المرء لا يبقى على حال مدى الأيام . والفتى ينضج فيغدو رجلا . وأولى له أن ينضج فى هدوء وسكون ثم ينهض بجليل الأعمال ، من أن يكون نضوجه وسط ضوضاء حياة مضطربة جامحة ، طالما كانت نكبةً على الفتيان . . . وإنى برغم ما كنت عليه أبداً من الهدوء ، قد نما فى صدرى قلب حساس يبغض الظلم والأذَى . وأصبحت قادراً على التفريق بين ما فى هذه الحياة الدنيا من أمور ومذاهب . ولقد كان العمل فى المزرعة سبباً فى أن اشتد ساعداى ورجلاى . .

« إن هـذا الذى أزعمه صحيح كله ، وفى وسعى إثباته وتوكيده ... غير أنى لست أنكر أنك أصبتِ أيتها الأم ! فى عتابى ولومى . فلقد أخذتِ على كلمات قلتُها الآن ، فيها شائبة كذب ، وفيها شائبة رياء . وإنى أعترف لك بأنى لست أبغى هجر الديار خوفاً من الخطر المحدق ، أو من أجل فكرة سامية تدفعنى لأن أكون للوطن عَوْناً ، وعلى الأعداء حرباً . . . هذه عبارات فُهت بها لعلى استتر بها عنك ما بقلبى من وجد يكاد أن يشقه ويمزقه . فذرينى الآن أمضى ما عزمت عليه . فلئن أصبحت

وما يجيش بصدرى سوى آمال ضائعة ، فأجدِرْ بهذه الحياة أن تذهب فى إثرها .

« وإنى لأعلم علم اليقين ، أن الأفراد إنما يسيرون الى الدمار من غير جدوى ، إذا لم يستشعروا المنفعة العامة فيما يأتون من الأعمال » .

فقالت الأم العاقلة : « إمض فى حديثك : وقص على كل شيء : من جليل أو حقير ! . . إن الرجال فيهم عنف وشدة ، فلا يلتمسون من الوسائل إلا ما فيه غلوٌ وإفراط . وبرغم شدتهم وعنفهم فانهم كثيراً ما تخرجهم العقبات التى تعترضهم عن الجادة القويمة . أما المرأة فماهرة فى التماس أواسط الأمور . وتعرف كيف تسلك أحياناً طريقاً بعيدة توصلها الى غايتها ومقصدها .

« فقص على الآن كل شيء . ولتحدثنى بما أثار أشجانك بمثل هذا العنف الذى ما رأيته منك يوماً . وبما أهاج الدم فى عروقك ، وأسال الدمع من عينيك ، على الرغم منك » .

هنالك خان الفتى تجلدُهُ ، وغلبه الحزن والشجن . فجعل يبكى وينتحب ، مستنداً الى صدر أمه : وقال بصوت فيه حزن

ورقة : « إن الذى قاله اليوم أبى قد جرحنى جرحاً دامياً ، ما أظننى أستحق هذا منه اليوم ، وما أظننى كنت يوماً لمثله مستحقا . فلقد كنت وليس أحب الى نفسى من تمجيد أبوَىّ وإعزازِهما . وما كنت أرى فى الحياة من هو أكثر عقلا وأحكم رأياً من هذين الذين ربيانى صغيراً . ثم جدّا فى إرشادى وتأديبى طوال عهد الطفولة المظلم .

« ولطالما كنت أحمل الاساءة والأذى من أترابى ، إذ يقابلون حركاتى البريئة بالحقد والموجدة ؛ وقلّما كنت آبه لهم ، أو أقابل منهم الأذى بمثله . . بيد أنى إذا رأيتهم يهزأون بأبى حين يخرج من الكنيسة تكسوه الهيبة والوقار ، أو يسخرون من الرباط المعقود حول قبّعته ، أو الأزهار المطرزة على جُبّته التى كان يلبسها فى جلال وأبهة — وهى الجبة التى أُهديت اليوم — فهنالك كان يأخذ الغضب منى مأخذه ، فأوسعهم لكما وضرباً ولكزا ، لا أعرف ولا أبالى أين تقع ضرباتى منهم . ثم ينصرفون وهم يعولون وينتحبون ، والدم يجرى من أنوفهم مدرارا ، ولا يكاد الواحد منهم أن ينجو من وابل الضرب واللطم إلا بشق النفس .

« بعد ذلك جعلت أكبر وتزداد سنى ، فيزداد ما أكابده من والدى وما أعانى . إذ كان يجعلنى غرضاً للسهام التى يريد أن يرمى بها الغير . فكلما لقى فى مجلس المدينة عنتاً أحفَظَه ، كنت أنا الذى أدفع الثمن لما لاقاه من زملائه من نزاع ودسائس . حتى لقد كنتِ أنتِ تأسَيْنَ لى وترثين لما أعانى .

« ولقد كنت محتملا لهذا كله ، مستشعراً أبداً أن للآباء علينا حرمةً وفضلا ، إذ ليس هَمُّهم من الحياة إلا أن يكثروا الجمع والاقتناء من أجلنا ، ولقد يزهدون فى كثيرٍ من متاع هذه الحياة كى يدخروه لنا معشر الأبناء . . لكننى — ويا للأسف — لا أرى السعادة كل السعادة فى هذا الجمع فى الحاضر لكى نَنْعَمَ به فى المستقبل . . أجل لست أرى السعادة فى تكديس المال : كُدْساً على كدس ، والأرضِ : فداناً إلى فدان ، مهما حَسُنت شكلا ومنظراً . . لأن الوالد فى أثناء هذا كله تتقدم به السن ، والأبناء يكبرون . وليس لهم من نعيم يَوْمِهم نصيب ، والمستقبل أبداً يُهِمُّهُم ويُنْصِبُهم .

« أنظرى إلى ما يحيط بنا من هذه المزارع الوافرة . وإلى هذه الكروم والحدائق ، من ورائها الأجران والاصطبلات .

وكلها مرصوصة منسقة ، المتاع يلى المتاع . فما أبدعها جميعاً وما أكثر خيرها !

« ثم انظرى بعد هذا إلى طرف الدار ، وإلى حجرتى الملتصقة بالسقف ، والتى تبدو لنا نافذتها من هنا ! تعود الآن إلى خاطرى ذكرى ليالٍ قضيتها هناك ، انتظر طلوع القمر فى الليل ، وبزوغ الشمس فى الصباح ، مكتفياً بساعات قلائل من النوم الصحيح العميق . . كنت أنظر حولى فأحس الوحدة ، ولا أرى فى الحجرات أو فى فناء الدار ، أو فى الحديقة المزهرة والحقول المنبسطة فوق الكثبان . لا أجد فى هذا كله إلا خلاء مجدباً قفراً . وأظننى أصبحت تعوزنى الحليلة ! »

فردت الأم بتعقل وفهم وقالت : « ان والدك ووالدتك لأشد رغبة منك فى أن تتخذ لك شريكة فى الحياة ، فتصبح أيامك ولياليك ناعمة راضية . ولطالما حاولنا اقناعك بأن تختار لك فتاة ، بل لقد دفعناك إلى ذلك دفعاً . بيد أنى لست أجهل أنه اذا لم تأذن الساعة ، أو اذا لم تظهر الفتاة المنشودة ، فقد يلبث الاختيار مُعَلَّقاً زمناً طويلا . فيسوِّفُ المرء ويؤجل ، خشية أن يسىء الاختيار .

« لكنّ قلبي يحدثني بأنك قد اخترت وقضي الأمر . وكأني أرى قلبك قد شُغِف ، فبات أكثر إحساساً مِمَّا عهدناه . إذن اصدُقْني الخبر الآن . فان نفسي قد أحسّت الحقيقة منذ حين . إن التي اخترتها هي تلك الفتاة الشّريدة . »

فأجاب الفتي بحماس : « لقد أصبتِ ياأماه ! إنَّها هي . ولئن لم يُتَحْ لي أن أصطحبها اليوم إلى دارنا عروساً وزوجاً ، فانها ستمضي في طريقها ، وقد تختفي فلا أراها بعد اليوم . بسبب هذه الحرب الضروس ، وما هم فيه من حل وترحال وأسفار . ولئن فقدتها ، فستغدو هباءً كل هذه الثروة ، وهباءً ماتأتي به السنون المقبلة من خيرات ، والدار التي أسكن والحديقة الغناء سوف تنبو عنهما نفسي . بل وأنت أيها الأم العزيزة لن تجدي إلى تسليتي سبيلا . لأن الحب ، حين يُوثِق رباطه ، يحل عقدة كل رباطٍ آخر . وليست البنت وحدها هي التي تهجر والديها من أجل الرجل الذي اختارته وارتضته . بل كذلك الفتي ينسي أباه وأمه إذ يري الفتاة التي اختصها بالحب تتواري عن عينيه .

« فدعيني الآن انطلق إلى حيث يقذف بي اليأس . فقد

قال والدى فى هذا الأمر كلمته القاطعة ، وهيهات أن تكون داره بعد اليوم دارى ، مادام يأبى أن تدخلها الفتاة التى أهوى من بين سائر النساء . »

فأجابته الأم على الفور : « ما أشبه الرجلين المتخاصمين بالصخرة تواجه الصخرة ! كلاهما قد امتلأ جموداً وكبرا ، ولا يريد أن يقترب من الآخر قِيد أنمُلة . أو أن يحرّك لسانه بكلمة طيبة تلقاء الآخر . لكنى على رغم هذا لايزال فى صدرى بارق أمل بأن أباك سيزوجك منها مادامت على شىء كثير من الأمانة والصلاح ، برغم ضيق ذات يدها ، وبرغم كل الذى قاله اليوم من أنه يبغض مصاهرة الفقراء . فانه كثيراً مايقول فى حدته المألوفة عبارات لاينفذ منها حرفاً . بل كثيراً مايقبل الشىء الذى كان يرفضه ويأباه . وكل ماهنالك أنه يحب أن تقال له كلمة طيبة ، وهو لعمرى جدير بهذا لأنه السيد الوالد . . .

« ونحن جميعاً نعلم أن غضبه هذا ، الذى يثور من بعد المائدة ، ليس بشىء ذى خطر ، فهو يتكلم بشدة وبعنف ، وقد أثار النبيذ حفيظته ، وأهاج كل قواه ، فبات لايحس ولا يسمع

غير صوت نفسه . ويأبى الانصات إلى مايقوله سواه . لكن الآن قد اقترب المساء ، وقد دار بينه وبين صديقيه أحاديث شتى : ولا تكاد تذهب عنه حدة الخمر حتى يعود أكثر هدوءا وحلماً . ويحس أثر الظلم الذى أنزله بغيره .

« فهلم بنا الآن ، ولنحاول أن نعمل الذى نستطيعه ، دون أن نضيع لحظة : وما ينجح فى الحياة إلا الاقدام والمغامرة . ونحن فى حاجة إلى مساعدة الصديقين اللذين يجالسانه الآن . وسيكون لنا القس الكريم خير نصير . »

ثم نهضت الأم واقفة . وانهضت ابنها من مقعده . فقام يمشى خلفها طائعاً . وسارا كلاهما صامتين ، ينعمان الفكر فيما ينويان أن يفعلاه .

....

النشـــيد الخامس

پوليهمنيا POLYHYMNIA

(الهة الأناشيد الدينية)

رجل الدنيـا [1]

كان الأصدقاء الثلاثة : القسيس والصيدلى وصاحب الفندق ، جلوساً بعدُ ، يتجاذبون أطراف الحديث ، الذى لم يتغير موضوعه ، وإن كانوا قد قلّبوه على وجوهه جميعاً . وأخيراً قال القسيس الكريم الخصال : «لست أبغى معارضتكما فيما ذكرتمـا . بل إنى مُقرٌ بأن الانسان يجب أن ينشد الأحسن : ونحن نراه فى الواقع يبتغى الأسمى من الامور ، أو على الأقل يبتغى الجديد . لكن يجبُ ألاّ تغلوا . فان

(١) عنوان هذا النشيد رجل الدنيا : أى الرجل الذى اتخذ الدنيا كلها له وطناً لا يفرق بين الأقطار والأجناس . ولعل هذا إشارة للقسيس . وهنالك مقابلة بين رجل الدنيا Cosmopolite ، وبين البورجوا ساكن المدينة المذكور فى فصل سابق .

الطبيعة قد أضافت الى هذا أن حَبَّبَتْ الى الانسان الحرص على القديم ، والتنعُّمَ بالشيء الذى أَلِفَهُ واعتاده زمناً طويلا . وكل حال للمرء طيبة مادامت تستند على أساس من الطبيعة والعقل . .

« إن الانسان كثيرةٌ رغباتُه ، لكن حاجاته قليلة ، والعمر قصير المدى . وحياة ابن الفناء محدودة . ولست بلائم يوماً ذلك الرجل ، الذى أراه أبداً مُنْدَفِعاً قَلِقاً . يحوم ويجول ، ويركب البحار ، ويجوب سائر الأقطار ، فى هياج دائم وحماس . ثم يفرح ويطرب إذ يرى المال يتراكم حوله وحول ذوى قرباه . ولكنى أرى واجباً علىّ أيضاً أن أُقَدِّرَ كل التقدير ذلك الرجل من أهل المدينة ، الذى تلقاه هادئاً ساكناً ، يتفقد باهتمام الارث الذى آل اليه عن أبيه ، ويعنى بالأرض وبزراعتها فى كل موسم ؛ ليس بالرجل الذى يبدِّلُ أرضه ودياره كل عام ، فهو يعلم أن الشجرة التى غرست حديثاً لن تسرع فترسل نحو السماء فروعاً مجللة بالزهر ، وأن لابد له من الصبر والأناة ، وكذلك لابد له من فكر طاهر هادىء رزين ، ومن فَهْمٍ للأمور على حقيقتها ، فهو لا يُلقى فى

الأرض الخِصْبَةِ إلا القليل من البذور ، ولا يقتنى من الماشية إلا القليل ، الذى يستطيع رعايته والعناية بِنِتاجه . فهو يقصر همه على ما يستطيع أن ينهض به .

« وسعيدٌ ، لعمرى ، ذلك الرجل الذى منحته الطبيعة هذه الدقة فى الخُلُق ، فان مثله هو الذى يُغذّينا جميعاً ، ولنِعْمَ ساكن المدينة الصغيرة إذ يجمع بين حرفة أهل المدن وحرفة أهل الريف ! فمثله لا يحس ذلك العبء الذى ينوء بكاهل الفلاح ؛ ولا تزعجه الهموم التى تنغص عيش سكان المدينة ، الكثيرى المطامع ، الذين يريدون أبداً — وعلى الأخص نساؤهم وبناتهم — أن يقتدوا بمن هم أكثر مالا وأعلى مرتبة .

« لهذا وجب عليك أن تحمد لفتاك مجهوده الهادئ ، وأن تبارك الفتاة ، التى سيختارها زوجاً له يوماً ما . »

* * *

وحين بلغ القسيس هذا الموضع من حديثه ، دخلت الأم وابنها ، وقد قبضت على ذراعه ، ووقفت به بين يدى أبيه وقالت : « كم مرة أيها الوالد ، كنا نفكر ، ونحن نتحادث ،

فى ذلك اليوم السعيد ، الذى لابد أن يأتى : يوم يختار هرمن عروسه فيدخل السرور الى قلبنا جميعاً ! ولقد كنا نتذاكر هذا الأمر غيرَ مرّة : وكنا نشير عليه أحياناً بهذى وأحياناً بتلك : كدأب الوالدين إذ يتحادثان . والآن اقترب ذلك اليوم : وساقت المقادير اليه العروس وأرتْهَا لعينيه . وقد علّقها قلبه ، واستقر عليها رأيه . ألم نَدَعْ له من قبل أن يختار التى يهواها ويرتاح اليها ؟ والآن دَنَت الساعة ، فلقد أحب واختار وصحت عزيمته على بلوغ ما يريد ، والتى اختارها هى تلك الغريبة التى لقِيَها اليوم ، فأعطه إياها : وإلا فقد أقسم أن يبقى حياته أعزب . »

وقال الفتى : « أجل ! هبنى إياها يا أبتى ! إن قلبى اختار بصفاء وإيمان ؛ وهى أجدر النساء بأن تكون ابنة لك . »

صمت الوالد ولم ينبس بكلمة؛فنهض القسيس قائما وقال « إن اللحظة السانحة هى وحدها التى تتحكم فى حياة الانسان وفى مصيره ومآله . وكل عزيمة للمرء ، مهما طال فيها تفكيره وتدبيره ، فانها فى النهاية وليدة اللحظة التى يقطع فيها برأى وسرعان مايقطع الحكيم بالرأى الصواب .

« وانه لمن الخطر ، عند الحكم والاختيار ، أن يدخل المرء فى الأمور ما ليس منها . فيحار اللب ، ويضل الفكر .

« ان هرمن فتى ثاقب النظر ، وانى لأعرفه منذ الحداثة . ما كان يومامن طباعه — حتى وهو صبى — أن يمد يده الى هذا والى ذاك . وما كان يطلب غير الذى يحتاجه ، ثم يحتفظ به ويحرص عليه .

« فلا تأخذكم الحيرة والدهشة الآن ، لأن الحادث الذى كنتم ترجونه منذ عهد بعيد قد حدث فجأة ! حقيقة ليس للحادث ، فى الظاهر ، ذلك الشكل الذى كنتم تتمنونه . لكن هذه الامانى نفسها كثيرا ما تحجب عنا الشىء الذى نتمناه . وإنما تنزل الهبات علينا من السماء فى ثوبها هى ، وفى شكلها . فلا تنكروا هذه الفتاة التى تحرك لها ، لأول مرة ، قلب ولدكم العزيز وهو ذلك الفتى الطاهر العاقل .

« وأسعِد بذلك الرجل ، الذى تمد اليه حبيبته الأولى يدها ، فلا ينقلب حبه شجنا يضويه ويضنيه . ولعمرى إنى لأنظر إليه الآن ، فأدرك أن حظه قد تقرر . إن الحب الصحيح سرعان ما يستحيل بهالشاب رجلا رشيدا . وانى لألمح فى وجهه العزم

الذى لا ينثنى عما يروم . ولئن أبيت عليه هذا فقد قضيت عليه بأن يلبث بقية الحياة — وفيها أبهى سنى العمر — رهين الحزن والكآبة . »

لم يكد القسيس أن ينتهى حتى تكلم الصيدلى، وكان طوال هذه الفترة يهم بالكلام . فلا يملك نفسه إلا بجهد وعناء . قال وهو يمعن فى التفكير: « رويدا ! تعالوا نسلك هذه الكرة أيضا طريقا وسطا . ولنتعجل مع التريث! ذاك كان شعار القيصر أغسطس نفسه . وأنا بودى أن أقوم بخدمة جيرانى الأعزاء؛ وأن أستخدمَ فى هذا كل مالدَىّ من ذكاءٍ قليلٍ وفهمٍ ضئيل . والشباب ، على الأخص ، فى حاجة إلى من يرشده ويهديه . فدعونى أنطلق الآن لكى أخبُرَ الفتاة . وأسأل عنها المجتمع الذى يعرفها والذى تعيش فيه . ولست بالذى يسهل خداعه . وأعرِف كيف أنقُدُ ما يقال لى ، فأطرح منه الزائف . »

فقال الفتى : « نِعم ما تصنع أيها الجار ! فاذهب واستطلع ماشئت من الأنباء ! وَوَدَدْتُ لو أنك استصحبت معك مولانا القسيس ، فان رجلين جليلين مثلكما ، هما من أعدل

الشهود الذين لا يُتَّهمون . ويا أبتى ماهذه الفتاة من النساء اللواتى يَجُبْنَ الآفاق فى طلب المغامرات ، لكى توقعن فى حبائلهن أغرار الشباب ، بالحيل والأكاذيب . كلا بل إن هذه الحرب الضروس ، التى مزقت العالم كل ممزق ، ودكت المغانِىَ والمعاقل ، أجل هذه الحرب الشعواء هى التى شرَّدَت هذه المسكينة . ألسنا اليوم نرى رأى العين كرام الرجال تحت كلكل البؤس والشقاء ؟ ألسنا نرى الأمراء يلوذون بالهرب متنكرين ، والملوك يعيشون فى منفاهم طريدين ؟ وكذلك هى ، وهى زين نساء العالمين ، قد أخرجت من ديارها فتناست ما هى فيه من محنة وبلية . وجعلت تقوم بأوَدِ الآخرين . فباتت قادِرَةً فى ساعة العجز ، معوَانةً حين انقطع كل عون .

لقد عم الأرض حزن هائل ، وشقاء شامل ؛ فهلا نشأ وسط هذه النِّقَم نعمةٌ واحدة ؟ هلاَّ أُتيحَ لو أن أضُمَّ عروسى ، وهى تلك المرأة الأمينةُ ، إلى صدرى ، فيكونَ لى وسط هذه الحروب سرورٌ ونعيم ، كما كان لكما من قبل وسط الحريق الهائل ؟ »

هنالك لم يتمالك الوالد أن فتح فاه وقال : « ليت شعرى . كيف انحلت عقدة لسانك أيها الفتى ، بعد أن كان قابعاً فى فمك طوال هذه السنين ، لا يتحرك إلا بجهد وعناء ؟ فهل كُتِبَ لى أن أقاسىَ اليومَ ذلك الخطب الأليم الذى يتهدد الآباء طُرّاً : إذ تَميل الأمُ ميلاً لابنها ، وتناصره وتؤازره فى رغبته الملِحّة وارادته العنيفة ؛ ثم ينحاز اليهما الجار بعد الجار ؛ وقد تحالفوا جميعاً على الوالد .

وأرانى أمسيت عاجزاً عن مقاومتكم جميعاً ، وماذا تجدى المقاومة . فانى أرى مُنْذُ الساعة ، روح العناد والدموع والبكاء .

فاذهبا إذن واستطلعا الأنباء ! فان كانت تلك ارادة الله . فأحضرا الفتاة الى الدار ، وإلا فما على الفتى إلا التذرُّع بالنسيان والسلوان . »

فصاح الفتى فرِحاً طروباً : «قبل غروب شمس هذا اليوم ستكون ابنتك بين يديك ؛ أجل وسيُنعم عليك بفتاة هى أجل النساء ، وخير مايتمنى المرء حزماً وعقلا . وإنى لأرجو أنها هى أيضاً ستنعم بهذا وتسعد : بل وستشكر لى مدى

. الدهر أن قد وجدت فيكما أباً وأمًّا يتمنى مثلهما أحسن الأبناء وأعقلهم.

« ولن أضيع الآن لحظة أخرى، بل أبادر فأعدّ المركبة والجوادين، ثم أحمل الصديقين الى موضع الحبيبة: واتركهما هناك وحدهما. ليدبّرا الأمر بما أُوتيا من عقل وحكمة. وإنى أعدكم، بل أقسم لكم، أنْ أنزلَ بعد هذا على حكمهما. وسأمتنع عن مقابلة الفتاة حتى تصبح لى خِطْباً. »

قال هذا وخرج عَجِلاً. وجعل الآخرون يُجمعون أمرهم، ويتدبرون الطريق التى يسلكونها فى معالجة ذلك الأمر الخطير.

ولم يُضع هرمن لحظة: بل انطلق الى الأصطبل، حيث رأى الجوادين، واقفين هادئين، وهما يلتهمان أحسن الشعير والدريس التهاماً: فألبس كلا منهما الشكيمة بين الفكين ثم أمرّ اللجم من الحلقات: وأحكم وضع السيور الطويلة العريضة: واقتاد الجوادين إلى فناء الدار، حيث هيأ الخادم المركبة وأعدها: فدفع الجوادين برفق إلى عريش المركبة،

وربطهما باحكام الى عَمَدِها . وتبوأ مقعد السائق والسوط فى يده . وسار بالمركبة الى باب الدار ؛ ولم يكد الصديقان أن يجلسا فى مقعدهما الرحيب ، حتى انطلقت تعدو بهم . ولم تك إلا لحظة حتى غادرت الطرق المرصوفة ، وزايلت المدينة بأسوارها وأبراجها . وقد أخذ هرمن يسوقها تلقاء ذلك الجسر المعهود ، وهو يركض بها ركضاً ، دون رَيْثٍ ولا مَهَلٍ ، سواء أكان يجرى صاعداً أم منحدراً .

ولم يلبث أن لاح له برج القرية ؛ ومن ورائه دورها المتفرقة تحيط بها الحدائق . عند ذلك أخذ يخفف من غلواء الخيل ، ويهدىء من سرعتها .

* * *

وكان أمام القرية مرج يكسوه بساط من العشب الندى . تظلله شجرات من الزيزفون ،شامخة جليلة نبتت فى مواضعها هذه منذ زمن بعيد ؛ فثبت أصلها فى الثرى ، وامتدت الى السماء فروعها . وكان هذا المرج ملعبا وملهى لأهل القرية ولما جاورها من البلاد . وكان فى وسطه بئر قد حفرت بين الدوح فى أرض منخفضة مطمئنة ؛ تنزل إليها بدرج فتلقى مقاعد من

الحجر مصفوفة حول ينبوع يتدفق منه الماء أبدا ، رائقا صافيا ، وقد أحيط بسور صغير ، بحيث يسهل الاستقاء من الحوض.

استقر رأى هرمن على أن يريح الجوادين فى ظل هذا الدوح ، ففعل ، وقال لصاحبيه: « انزلا الآن أيها الصديقان ، واذهبا كى تعلما أن هذه الفتاة جديرة باليد التى أمد إليها . أما أنا فما يداخلنى فى هذا ريب . ولن تنبئانى عنها بجديد . ولو كان الأمر كله بيدى لا نطلقت الى القرية ، وطلبت منها ان تتم سعادتى بكليمات قلائل تفوه بها .

« أما أنتما فلن تجدا صعوبة فى معرفتها من بين هذه الجماهير . فمن الصعب أن يكون لغيرها ذلك القوام العالى . ومع هذا فأنى واصف لكما من ثيابها النقية ما قد يرشدكما اليها : لقد لبست قرطقا أحمر ، قد نجم من تحته ثدياها . وأحاطت خصرها بنطاق اسود قد أحكمت شده وجعلت فى لبة القميص ثنايا وطيات تحيط بجيدها المستدير كاطار بديع . وفى وجهها البيضاوى تلمحان الصراحة والهدوء . وشعرها مضفور ذوائب عديدة على اسلاك من الفضة . ومن تحت النطاق يتدلى مرطها الأزرق، ذو الثنايا العديدة ويكاد يمس منها حين

تمشى عقبيها المليحين .

« لكن هنالك أمر أريد أن أسألكما اياه وألح عليكما فى أن تجيبانى اليه : وهو ألا تخاطبا الفتاة ، ولا تدعاها تفهم ما تقصدان إليه . بل اكتفيا بسؤال الآخرين ، وأنصتا للذى يقولون . ومتى اجتمع لديكما من الانباء مايهدىء روع الأب والأم فارجعا إلى ، لنتدبر ما نصنع بعد ذلك .

هذا هو الرأى الذى ارتأيت ونحن سائرون الى هنا . »

بعد أن ختم هرمن كلامه ، انطلق الصديقان الى القرية ، فاذا جماهير الناس قد احتشدت فى الحدائق والدور . وفى مخازن الغلال ، ولهم عجيج وضجيج . وقد اكتظت الطرق بالمركبات بحيث تلاصق العجلة العجلة . فمن رجال تطعم الماشية وهى تخور . والخيل وهى مربوطة الى المركبات . ومن نساء منهمكات فى تجفيف ماغسلن من الثياب على سياج المنازل أو على الاسوار أو فى أى مكان . الى أطفال يلهون باللعب فى مياه الجداول .

شق الصديقان فى جهد طريقا وسط هذه المركبات . وجعلا ينظران يمينا ويسارا نظرات المستكشف المستطلع . لعل عيونهما

أن تقع على الفتاة التى وصفت لها . فلم يجدا لها شبيها بين من ألفيا من النساء . ولم يلبثا أن بلغا الى موضع اشتد به الزحام ، وقد اجتمع حول المركبات رجال يختصمون ، من حولهم نساء يصحن ويُعولن . واقبل شيخ وقور مسرعا . واقترب من المتخاصمين فلم يكد يبدو ويشير اليهم إشارة الآمر حتى هدأت الضوضاء وساد السكون . فصاح فيهم : « أما كفانا ما حل بنا من الشقاء حتى صرنا عاجزين عن ان نتفاهم فيما بيننا ، وان نتسامح ، ونغض الطرف عما ماقد يرتكبه بعضنا من هفوات؟ لقد يكون احدكم وسط السعادة ، ضجرا متبرما ، سريع الغضب ، لكن ألم يعلمكم وقع النوائب أن تكفوا عن النزاع والخصام ؟ أولى لكم هنا . ونحن فى ديار الغربة ، أن يسع الواحد منكم أخاه ، وأن تتقاسموا ما بأيديكم من رزق حتى تكونوا موضع العطف والرعاية . »

فاه الشيخ بهذه الكلمات ، وقد انصت الجميع اليه . ثم أخذوا فى اصلاح مركباتهم ودوابهم ؛ وقد لانت عريكتهم ، وهدأ ثائرهم .

وسمع القسيس كلام الشيخ ؛ فتبين فى وجهه ملامح القاضى

العاقل الرزين. فتقدم اليه وخاطبه فى جد قائلا: «ان الشعب فى زمن الرخاء يعيش خلى البال. يتغذى مما تنتج أرض سخية واسعة. تخرج له الهبات الشهية على مدى الشهور والسنين. هنالك يجرى كل شى وفق المرام، فيحس كل امرىء فى نفسه أنه فوق سائر الناس فضلا وعقلا. وما دامت الأمور تجرى فى مجراها فان أحزم الناس وأذكاهم لا يلقى من التقدير أكثر مما يلقى سواه.

« ولكن اذا نزل الشقاء، فاضطربت لوقْعِهِ سبُل الحياة. وخُرِّبت المنازل والدور، وهلكت الحدائق والزروع. وسيق الرجال والنساء من مسكنهم الأمين، وقذِف بهم إلى العراء. يختلف عليهم نهارٌ قاسٍ وليل مخيف. فهنالك ينظر الناس مِن حولهم ليبحثوا عن أوفرهم عقلا، وأعلاهم رأياً. الذى يستطيع أن يكلمهم، فلا تذهب كلماته أدراج الرياح.

« قل لى ياوالدى! إنك من غير شك القاضى الذى يحكم بين هؤلاء الشريدين، ولهذا استطعت أن تهدئهم من غير عناء! أجل وإنى أراك شبيهاً بأولئك القادة، فى العصور القديمة، الذين كانوا يقودون رعاياهم الطريدة وسط الصحارى

والقفار (١)، وكأنى الآن إنما أخاطب يوشع أو موسى . »

فأجاب القاضى وهو يلقى عليه نظرات حادة جادّة :
« حقاً إن زماننا هذا ليشبه أغرب العصور التى حدثنا عنها التاريخ ؛ سواء أكان تاريخ دين أم تاريخ دنيا . وإن الذى عاش من الأمس الى اليوم فكأنما عاش عدة سنين، لكثرة ما تعاقب من الحادثات فى هذه الفترة القصيرة . أما اذا حاولتُ أن أذكر ما قبل ذاك بزمن قصير : فانى يُخيل لى أنى بت أحمل على كاهلى عبئاً ثقيلا من السنين . وأعجب أن لم تزل فىَّ بقية من القوة .

« أجل إننا نستطيع حقًّا أن نقارن بين أنفسنا وبين ذلك الشعب(٢)، الذى لاحت له النار المقدسة فى ساعة المحنة . فكذلك نحن قد شاهدنا الروح القدس وسط السحاب والنيران . »

وكان القسيس يود أن يمضى فى حديثه مع القاضى ،

---

(١) أى مثل موسى عليه السلام حين قاد جموع بنى اسرائيل فى الصحراء ما بين مصر وفلسطين .

(٢) شعب بنى اسرائيل

ليستطلع أنباءه وأنباء قومه . فقال له رفيقه همساً : « امض في حديثك مع القاضي . وسق اليه حديث الفتاة ؛ أما أنا فسأطوف بالمكان قليلا . باحثاً عنها : ثم أعود اليك بعد أن أراها . » فأشار القسيس موافقاً : وانطلق الآخر بين الأسوار والحدائق ، مستطلعاً باحثاً .

....

النشـــيد السادس

كليو [1] KLIO

(إلهة التاريخ)

العصر

أخذ القسيس يسأل ذلك القاضى ، الغريب الدار ، عما ناسته الجماعة ، وعن الزمن الذى قضته فى هذا التشرد : فأجابه الآخر : « إن آلامنا ليست بالشىء الحديث العهد ، فقد شربنا صاب هذه السنين جميعاً ، وكان أشد المصائب وقعاً علينا أن رأينا أبهى آمالنا وأحلاها تتهدم وتتحطم . ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنّ نفسه أخذت تسمو وتعلو ، وأن صدره الحر أخذ يخفق خفقاناً أشد طهراً وصفاء ، حينما أشرقت

(١) فى هذا الفصل اشارات الى حوادث الثورة الفرنسية والى مابعثت من الآمال فى النفوس وما خيبت من الرجاء . ولهذا فان اسم كليو إلهة التاريخ ملائم لهذا الفصل كل الملاءمة .

علينا الشمس الجديدة بأشعة براقة تسطع وتلمع . وحينما استهوى مسامعنا الكلام عن حقوق الانسان ، التى هى ملك للناس جميعاً ، وعن الحرية التى تعلى النفس ، وعن مبدأ المساواة المجيد .

« هناك غدا كل يؤمل أن سيحيا حياته لنفسه (١) وكأنما تلك السلاسل والأغلال، التى قيدت بها الأنانية والكسل(٢) الكثير من الأمم ، قد تكسرت أخيرا . . ألم تكن أنظار الشعوب جميعا متجهة فى تلك الأيام المفعمة بالحوادث الى عاصمة العالم (٣) ، التى استحقت هذا اللقب العظيم فى ذلك الوقت أكثر مما استحقته فى أى عصر آخر ؟ ألم تكن أسماء أولئك الرجال، الذين كانوا أول من أذاعوا الرسالة ونشروها(٤) تضارع أسماء أجل الناس قـــدرا ، ممن غدا لهم مكان بين النجوم الزاهرة ؟ ثم ألم يكن أثر هذا كله أن بات كل انسان يحس أن قد ارتقى : قلباً وروحاً ولسانا ؟

---

(١) يحيا من أجل نفسه لا من أجل الملوك والقسس والنبلاء .

(٢) الانانية والكسل رمز للطبقات الحاكمة التى تسخر الشعب لخدمتها .

(٣) يريد باريس

(٤) أمثال ميرابو ولافايت .

ونحن الجيرة الاقربون (١) كنا أول من اشتعلت نار الحماس فى نفوسهم . . . من بعد هذا دارت رحا القتال ، وجعلت كتائب الفرنسيين تزحف على ديارنا . ولكن كان يبدو لنا أنهم مقبلون علينا كأصدقاء . وهكذا ألفيناهم . فلقد كانوا جميعا ذوى نفوس عالية . فجعلوا يغرسون بيننا بهمة وعزيمة أشجار الحرية اليانعة. وأعلنوا أن كلاً له حقوقه المرعية وحكومته التى يرضى ويختار . وقد طرب الجميع سرورا ، شبانا وكهولا . وجعلت حلقات الرقص تدور من حول الأعلام الجديدة . . وهكذا تمّ لهؤلاء الفرنسيين اللبقين اكتساب قلوب الرجال بهمتهم وعزمتهم ، وقلوب النساء برشاقتهم التى لا تقاوم ، حتى لقد سهل علينا عبء الحرب على فداحته ، لأن الأمل كان يسدل دون المستقبل ستوراً . فلا تقع أبصارنا الا على السبل الجديدة التى بين أيدينا .

« لقد تعلم أن الزمن الذى يقضيه العروس وخطيبه ، يغشيان المراقص والملاعب ، وهما بانتظار يوم العرس ، من أسعد الازمنة وأرغدها ؛ لكن كان أسعد منه ألف مرة ذلك

(١) سكان الاقاليم الالمانية الملاصقة لفرنسا الواقعة غرب نهر الرين .

الزمن ، الذى كان المرء يرى فيه أن أقصى ما كان يطمح إليه بصره ، بات قريب المنال جدا . فهناك انحلت عقده الألسنة ، وأطلق الشيوخ والشبان للقول العنان ، معبرين عن كل فكر سام وإحساس كريم [١] .

« لكن لم تلبث السماء أن غشيتها السحب ، ونهض جنس فاسد ليقبض على زمام الحكم [٢] ، وهو عاجز عن أن يفعل الخير ، فأخذ أفراده يذبح بعضهم بعضا ، ويستبدون بجيرانهم وإخوانهم . وبعثوا إلينا شرذمة من الأنانيين الجَشِعين . فأكب كبراؤهم على سلبنا كل شىء يستحق السلب ، وأكب صغراؤهم على النهب ، فلم يدعوا حقيرا أو تافها الا استولوا عليه . وما كان خوفهم إلا أن يسرفوا فلا يتركوا شيئاً الى الغد .

« فلم يمض زمن طويل حتى حل بالناس الشقاء ، وفى كل يوم يشتد بنا الظلم ويزداد . وكانوا فى عنفوان عزهم ونصرهم ، فلم نجد من ينصت الى استغاثاتنا . فاستولى الغيظ والغضب

---

(١) اشارة الى الذين تغنوا بمدح الثورة الفرنسية فى أول عهدها من شعراء الألمان أمثال كلوبستك Klopstock

(٢) اشارة الى جماعة البعاقبة

حتى على أعذب الناس روحا . واقسم الكل ليَثْأرَنَّ لما نزل بالبلاد من العار ، ولتلك الآمال التى خابت خيبةً مضاعفة . وكان الجدُّ حليف الألمان. فعاد الفرنسيون وارتدوا متقهقرين. عند ذلك جعلنا ندرك حقيقة أهوال الحروب . فان الجيش الظافر المنتصر قد يبدى شيئا من الكرم والمجاملة ، أو على الأقل . يتظاهر بذلك . فلا يريد أن يبطش بالذين ظفر بهم؛ بل يفضل أن يُبقى عليهم . وأن يستخدمهم كل يوم فينتفع بهم وبما ملكت أيديهم . أما المنهزم الهارب فلا يعرف شرعاً ولا عُرفاً ، أقصى بغيته أن ينجو من الموت ، فهو يلتهم كل ما يقع فى يديه من غير تدبُّر ولا تبصُّر . وتطيش أحلامه ويدفعه اليأس الى ارتكاب كل اثم ، فلا يرى لشىء قدسا ولا حرمة . بل يسلب كل ما يقع تحت بصره. وتدفعه الشهوة الوحشية لأن ينقض على النساء ، فتنقلب لذاته فظاعة وإجراما ويبصر الموت ماثلا أمامه فى كل مكان ، فيعيش لحظاته الأخيرة عيشة الوحوش الضارية . يسره أن يرى الدماء وأن يسمع أنين المعذبين ..

« هنالك جاشت برجالنا مراجل الغضب ، وأرادوا أن

يثأروا لما فقدوه وأن يدافعوا عما بقى . فحمل الجميع أسلحتهم وقد ازدادت شجاعتهم لما رأوه من سرعة فرار الهاربين ، ومن وجوههم الشاحبة ، ونظراتهم الفزعة ، فجعل ناقوس الحرب يدق دقات متصلة لا تنقطع . ولم يهدىء من ثورة غضبهم خوف الأخطار التى هم مقبلون عليها . ففى لمحة الطرف انقلبت آلات الزراعة إلى أداة حرب ، فاذا الأمشاط والمناجل تقطر نجيعا ، واذا الأعداء تتساقط أشلاؤهم بلا رأفة ولا رحمة . فأما الشجعان فكانوا يفتكون بهم جهاراً : وأما الجبناء فيقتلون غيلة وخلسة . إن لأرجو ألا أرى بنى الانسان فى مثل تلك الحال من الفوضى والانحطاط مرة أخرى : ولَمَنْظَرُ الوحش الضارى خير من منظرهم .

« فعلام إذن كل هذا الكلام عن الحرية كأنما الناس قادرون حقا أن يحكموا أنفسهم ؟ انهم لا يكادون أن يُرخى لهم العنان ، وتزول من أمامهم العقبات . حتى تظهر فيهم الغرائز الدنيئة ، ويختفى العدل والانصاف فى الزوايا والأركان . »

فقال القسيس : « أيها الرجل الجليل ! لست بلائمك على إنكارك لبنى الانسان ، بعد الذى عانيته من شرورهم ، ومما

ارتكبوه من تدمير وتخريب . على أنك لو ألقيت نظرة أخرى على تلك الأيام الحزينة ، فانك واجد فيها من غير شك كثيرا من صالح الأمور ؛ وكثيرا من جليل المشاعر ؛ التى كانت كامنة فى أعماق القلوب حتى أثارها وقع الخطوب . فاذا الشقاء الداهم والخطر المحدق يظهران الانسان فى صورة المَلَك ، وإذا هو للآخرين بمثابة إله يرعاهم ويحميهم . »

فتبسم الشيخ القاضى ضاحكا وقال: انك تذكّرنى تذكير الحكيم العاقل : كما يذكرون صاحب دار اشتعلت بها النيران فدمرتها ، فيذكرونه بما فيها من الذهب والفضة ، مما قد أذابته النار ، ولبث مبعثرا بين أنقاض الدار . وفى الحق إنه لنَزْر يسير ، لكنه على قلته ثمين . فيحفر المسكين باحثا عنه، ويفرح لما قد يجده منه . وأنا كذلك أرجع بأفكارى مسرورا الى تلك الأعمال الطيبة القليلة ، التى لم تزل تعيها الذاكرة .

أجل لست بمُنكرٍ أنى شاهدت الذين بينهم عداوة ينسون عداوتهم ، كى يتعاونوا على انقاذ المدينة من براثن الشقاء . ورأيت كيف تنهض الصداقة وحب الأبناء والآباء فتأتى بما قد يعد ضربا من المحال . وأبصرت كيف ينقلب الشاب

رجلا فى لمحة الطرف . والشيخ اليَفَن يحول فتى يافعا . بل ورأيت الطفل يعود شابا ، وذلك الجنس . الذى ألفنا أن ننعته بالضعف . قد راح يبدى من البسالة والبأس ما يثير الاعجاب .

«ولأقص عليك أولا ذلك العمل الجميل ، الذى قامت به فتاة كريمة من خيرة العذارى : تخلفت هذه الفتاة فى مزرعة كبيرة ومعها كثير من الفتيات . وقد ذهب الرجال جميعا لمحاربة الأعداء . وبينما هن كذلك أغارت على المزرعة شرذمة من أراذل الناس . فنهبوا المزرعة ثم دخلوا على النساء الدار . فرأوا تلك الحسناء وقوامها المعتدل ، والفتيات الأخريات ، وهن أحق بأن يُدّعين طفلات . فتملكتهم الشهوة الوحشية . واندفعوا يريدون مهاجمة الصغيرات وهن يرتعدن فرقا ، والغادة الباسلة . لكنها لم تلبث أن انتزعت من جانب أحدهم سيفا وأجهزت عليه بضربه عنيفة فخر تحت قدميها مضرجا بدمائه . . ثم لم تزل تضربهم ضربات الرجل القوى حتى كفت أخواتها شرهم ؛ ولاذ اللصوص بالهرب ، بعد أن جرحت منهم أربعة . بعد ذلك أغلقت الدار .

وبقيت والسلاح فى يدها تنتظر المدد . »

حين سمع القسيس هذا الأطراء لتلك الفتاة ، داخل قلبه الأمل من أجل صديقه . وهم بالسؤال عن مصيرها ، وعما اذا كانت وسط هذا الجمع الغفير من اللاجئين . لكن فى تلك اللحظة دخل الصيدلى مسرعا ، وجذب القسيس من ردائه وقال له همساً : « قد عرفت الفتاة بعد لأى ، من بين مئات من النساء . وهى كما وصفت لنا تماما . فتعال معى كى تراها رأى العين . وليصحبنا هذا القاضى لنستطلع منه بقية أخبارها . » والتفتا فاذا القاضى قد استدعاه قومه ليستفتوه فى شؤنهم ويهتدوا بهَدْيه .

وبرغم هذا سار القسيس وراء الصيدلى حتى بلغا إلى فجوة فى السياج . فقال هذا وهو يشير بيده : « أنظر هاهى الفتاة ! سرعان ماعرفت كيف تلف المولود لفاً محكما . وأنا أذكر تماماً القطن القديم . وغطاء الوسادة الأزرق . وهذا كله مما كان فى حقيبة هرمن ، وقد أحسنت إذ أحكمت تحويل تلك الهدايا بسرعة إلى حالتها الجديدة . وهذه دلائل على الفتاة لاتقبل الشك . والصفات الأخرى واضحة أيضاً كل

الوضوح . فهاك القرطق الأحمر ، يستر صدراً قد نجم ، وهاك النطاق الأسود قد أحكمت عقده حول خصرها . وقد جعلت فى لبة القميص ثنايا وطيات بديعة تحيط بجيدها المستدير كاطار جميل . وفى وجهها البيضاوى تلمح الصراحة والهدوء وشعرها مضفور ضفائر عديدة على أسلاك من الفضة . وبرغم أنها جالسة فاننا نستطيع أن نتبين قدها الممشوق ، وهو ذا مرطها الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ، يلفها من خصرها الى عقبيها المستديرين .

هذه هى من غير شك ، فتعال نستفسر عنها لنعلم هل هى ذات فضل وفضيلة وهل تحسن إدارة المنزل . »

فجعل القسيس يختـــبر الفتاة بثاقب نظره . ثم قال : « لعمرى ليس بعجيب أنْ قد خلبت الفتى وسحرته . فان عين الناقد الخبير لا تقع منها إلا على كل ما يعجب : سعيدٌ من منحته الطبيعة الجمال الكامل . فبات محبوباً حيثما نزل ، ولن يكون غريباً ، مهما نَبَت به الدار . إذ يود الكل أن يقترب منه ، وأن يلبث بقربه زمناً طويلا . ولئن صاحبَ جمالَ الخَلق هذا حسن الخُلق ، فانى أؤكد لك أن فتانا هرمن قد أصاب

عروسا ستملأ أيام حياته سعادةً ونعيماً . وستقف مخلصةً وفية الى جانبه فى كل حين . وأكبر ظنى أن هــذا الجسم الـكامل لاينطوى إلا على روح طاهرة . وهـذا الشباب القوى سيفضى على مدى السنين إلى شيخوخة سعيدة . »

فأجاب الصيدلى وهو يمعن فى التفكير : « رغم هذا ، كثيراً مايخدع المظهر . وأنالا أريد أن أثق بماقد يبدو للعين . وكثيراً ماجربت صحة المثل القائل : « لاتركن الى صديقك الجديد كل الركون قبل أن تلعق وإياه صاعا من الملح (١). فالزمن وحده كفيل أن يريك مبلغ صداقته ، ومنزلتك عنده . دعنا إذن نستطلع أمرها من أناس صالحين يعرفونها ، ويستطيعون أن يقصوا علينا من سيرتها شيئاً . »

فقال القسيس : «وأنا أيضاً أفضل سلوك طريق الحذر ، فنحن لانخطب الفتاة لنفسنا ، واختيار فتاة من أجل صديق أمر يتطلب التروى . »

ثم انطلقا نحو القاضى الهمام ، وكان يسير تلقاءهم ، منشغلا بما لديه من الأعمال . فأقبل عليه القسيس العاقل ،

(١) كناية عن تجربته فى الشدة .

وتكلم اليه محترساً. فقال : « إنا رأينا فى الحديقة المجاورة فتاة جالسة تحت شجرة تفاح ، تصنع لطفل رضيع ثياباً من قطعة قطن قديمة لعلها أهديت اليها . وقد أعجبنا قوامها المعتدل وما يبدو عليها من الجرأة والبسالة ؟ فحدثنا بما تعلمه عنها . وما سألناك إلا عن نية طيبة . »

فتقدم القاضى قليلا لينظر الى الحديقة ثم قال : « إنى عرفتك أمر هذه الفتاة من قبل ، حين قصصت عليك ذلك العمل المجيد الذى قامت به هـذه العذراء بعينها . حين استلت السيف ودافعت عن نفسها وعن صواحبها . أجل هذه هى . لا تكاد تلقى عليها نظرة حتى ترى ما وهبتها الطبيعة من قوة . وهى على قوة جسمها طيبة القلب . فقد كانت تعول شيخا هرما من أقاربها ، فلم تزل تعنى بأمره حتى تخرمته المنون وقد أودى به حزنه على المدينة ، وما نزل بها من البلاء وما يتهدد ثروته من الأخطار .

« وكذلك قابلت بهدوء وجلد كارثة أخرى نزلت بها إذ فقدت خطيبها وهو فتى ذو إباء وشمم . أشتعلت فى نفسه نار الحماسة من أجل المبادىء السامية الأولى ، وأراد أن يجاهد

بنفسه فى سبيل الحرية . فذهب الى باريس . ولم يلبث هناك طويلا حتى قتل قتلة شنيعة . وهو يقاوم الاستبداد والدسائس كما كان يفعل فى بلده . »

فلما أتم القاضى حديثه شكره الصديقان . واستأذناه فى الانصراف ، وأخرج رجل الدين قطعة من الذهب (وقد انفق منذ سويعات كل ما بالكيس من قطع الفضة ، اذ كان يعطى جماهير اللاجئين كلما مروا به) وقدمها الى القاضى وقال : « تفضل بتقسيم هذا الشىء الزهيد بين المحتاجين ، وبارك الله فى هذه الهبة ! » .

فأبى القاضى أن يأخذها منه وقال : « لقد استطعنا أن ننجو بشىء من النقود وبكثير من الثياب والأمتعة ، وانى لآمل أن نرجع الى أوطاننا . قبل أن ينفد ما بأيدينا . »

لكن القسيس أجابه وهو يضع القطعة فى يده : « أجدر بكل انسان فى هذا الزمن ألا يحجم عن العطاء ، وأجدر بكلٍّ ألا يرد ما يُقَدَّمُ اليه عن سماحة . فما يدرى أحد فى يده اليوم شىء ، الى متى يبقى الذى بيده . وما يدرى أحد اليوم كم يطول به السير والطواف فى ديار الغربة ، مقصًّى عن المزارع

والحدائق التى كانت تؤويه وتغذيه . »

« وقال الصيدلى ، وكأنما أهمّهُ الأمر : « أجل لعمرى ولو كان فى جيبى نقود لمنحتك إياها : كبيرة وصغيرة ؛ إذ لا شك عندى أن فى عشيرتك من هم فى حاجة اليها . ومع هذا فانى لن أتركك تمضى من غير هبة أهبك إياها ، حتى ترى نيتى الطيبة ، ولو أن الصنيع دون النية بكثير . »

ثم أخرج من جيبه كيسا من الجلد المطرز كان يحفظ فيه مالديه من التبغ ، وجعل يفتحه بتدقيق وتمهل . فاذا فيه مايكفى لملء (بيبات) قلائل . فقدمه الى القاضى وهو يقول : « إن الهبة لعمرى قليلة . » فرد الآخر بأن المسافر يرحب أبدا بما يقدم اليه من جيد التبغ .

فأخذ الصيدلى يمدح تبغه ويثنى عليه . لكن القسيس لم يدعه يطيل ، بل اجتذبه وابتعدا عن القاضى . وقال له : « أسرع بنا فان الفتى ينتظرنا فى قلق ، ويجب أن نسمعه النبأ السار بأسرع مايمكن . » .

فانطلقا مسرعين حتى اذا كانا على مقربة من الشاب ، ألفياه متكئا على مركبته تحت شجرة زيزفون ، وقد جعلت الخيل

تضرب العشب بسنابكها . وهو ممسك بلجمها ومعن فى التفكير . وكان ينظر أمامه بعيداً ، فلم يحس قدوم الصديقين ، حتى نادياه حين اقتربا ، وأشارا اليه اشارات سارة . وكان الصيدلى قد شرع يخاطبه من بعيد . ولكنهما لم يلبثا أن وصلا اليه . وعند ذلك أمسك القسيس بيد الفتى وسبق زميله الى الكلام فقال : « سعد جدُّك أيها الفتى ! إن عينك الطاهرة وقلبك الخالص قد أحسنا الاختيار . فلتسعد ولتسعد بك حليلة شبابك . وهى لعمرى جديرة بك حقا . فتعال اذن وأعد المركبة ، ولنعد الى القرية راكبين ، وهنالك فلنخطبها ثم نذهب بها الى الدار . »

كان الفتى منصتا الى كلمات الرسول ، وبرغم أنها عبارات سماوية مقدسة وباعثة للأمـــل ، لم تبد على وجهه علامات السرور ، بل تنهد من أعماق صدره وقال : « لقد أتينا إلى هنا على عجل ، ولكنى أخشى أن سنركب الى دارنا فى شىء من الفشل ، فنرجع متباطئين . لقد أخذت الهموم تملأ قلبي وأنا انتظر كما هاهنا . وأخذ يستحوذ على اليأس والقلق وكل ما يضنى أفئدة المحبين . فهل تحسبان أن مجرد ذهابنا إلى هناك كافٍ لأن تقبل الفتاة علينا وتتبعنا ، لأننا نحن ذوو يسار ، أما هى فتعانى الفاقة

والتشرد . لكن الفقر نفسه ـ ان أصاب غير أهله ـ يبعث فى النفس الشمم والكبرياء . وهذه الفتاة جمة النشاط . وقد تدرعت بالقناعة . وبهذين السلاحين يصبح العالم فى قبضة يدها .

ثم أتحسبان أن يكون لامرأة مثل هذا الجمال والكمال : فلا يفتتن بها الشباب ويهيم بها ؟ أتظنان أنها أغلقت قلبها حتى الساعة . فلم ينفذ اليه حبٌ بعد ؟ أولى لنا إذن ألا نركب الى هناك . بل نعود ساحبين ثياب الخجل . راكبين على مهل الى الدار . فانى لأخشى أن بعض الفتيان قد استحوذ على قلبها ويدها . وأنها أقسمت له يمين الاخلاص . فأى اضطراب سيعرونى اذا وقفت بين يديها فى مثل تلك الحال ؟ »

هم القسيس أن ينطق بكلمات يسليه بها ، لكن الصيدلى بثرثرته المعهودة سبقه الى الكلام فقال : « فى الأيام الخالية لم يكن هذا الشىء مما يحيرنا . اذ كان لكل أمر ذى خطر نظامه وطريقته . فبعد أن ينتقى الوالدان عروسا لفتاهما . يرسلان سرا فى طلب أحد أصدقاء الأسرة . ويبعثان به الى والدى العروس ليقوم بأمر الخطبة . فيبادر هذا الصديق ، وقد أخذ زينته كاملة فى يوم الأحد ، وينتظر الى ما بعد الغداء بقليل ،

ثم يزور ذلك الرجل الجليل فى داره . وهنالك يتحدث اليه بعبارات ودية عامة ، وهو يعلم كيف يحوّل مجرى الحديث متى شاء ، فبعد كثير من اللف والدوران يجيء ذكر الفتاة فيثنى عليها ، ثم يثنى على الأب . وعلى الأسرة التى أرسلته اليوم. ثم تبدر منه كلمة حكيمة تشير الى الموضوع ؛ ويلمح السفير العاقل ماهنالك من حسن نية فيأخذ فى الشرح والايضاح . واذا افترضنا أنه لم يلق نجحا ولا توفيقاً ، فلن يكون فى هذا غضاضة . أما اذا تكلل مسعاه بالفوز ، فسيصبح لهذا الوسيط المكان الأول فى كل حفلة للأسرة ، لأن العروسين يذكران مدى العمر أن أول من عقد الرّباط هو تلك اليد الماهرة : يد الوسيط .

« أما الآن فان هذا أصبح كسائر العادات الصالحة ، يعد خارجا عن المألوف . وأصبح كلٌ وسيط نفسه ، فاذا رفضته العروس ، فليتناول فشله بيده ، وليقف موقف المضطرب الحائر أمام الفتاة . »

فقال الفتى ، ولم يسمع من كلام الصيدلى الا القليل : بل كان يفكر حتى استقر رأيه على قرار حاسم : « مهما يكن

من أمر . فانى ذاهب بنفسى لأعلم من فم الفتاة مصيرى ومآلى . فان لى بهاتفة قلما وضع مثلها رجل فى امرأة . وأنا أعلم عِلْمَ اليقين أن كل ماتقوله حسن وحكيم . ولئن قدر لى أن سيكون هذا اللقاء الأخير ، فانى أود رغم هذا أنَ أقابل مرة أخرى تلك النظرات الصريحة من تلك العيون السوداء : واذا لم يتَح لى أن أضمها الى قلبى ، فلا أقل من أن أشاهد مرة أخرى ذلك الصدر وتلك الأعطاف ، التى يشتهى ذراعاي تطويقها ، أجل أريد أن أرى مرة أخرى ذلك الفم ، الذى تسعدنى منه القبلة وكلمة (نعم) مدى الحياة . والذى تشقينى منه كلمة (لا) مدى الحياة ،

« فدعانى إذن وحدى ! وما من داع إلى انتظارى . بل ارجعا الساعة الى الوالدوالوالدة ، كى يعلما منكما أن ابنهما لم يخطىء وأن الفتاة جديرة بكل خير . فاتركانى وحدى وسأعود مختصرا الطريق ، سالكا ذلك الممشى المنبسط فوق الكثيب إلى شجرة الكمثرى ، ثم أمر من وسط الكرمة حتى أصل الى دارنا .

« فهل يتاح لى أن أرجعَ مسرعا ومعى الحبيبة؟ أم أعود

فريدا وحيدا أجرُّ رِجلَيَّ جرا فى تلك الطريق ، ثم أدخل الدار التى لن أدخلها منشرح الصدر أبدا ؟ . . »

قال هذا وناول اللجام القسيس . فأمسكه هذا إمساك الخبير ، كابحاً جماح الجوادين ، وقد علا أشداقهما الزبد . ثم صعد المركبة مسرعا ، وجلس فى مكان السائق .

لكن رفيقه الحازم ، المتبصر فى العواقب ، جعل يتردد ويقول : « إنى أيها الصديق أأتمنك على نفسى وروحى وعقلى ، عن سرور ورضى . ولكن إخال أن الجسد والعظام ليست فى مأمن من عاديات الزمان ، اذا كانت اليد المقدسة هى القابضة على هذه اللجُمِ الدنيوية الفانية . »

فقال له الآخر ، وهو يحاوره مبتسما : « ادخل الى المركبة بسلام ، وأتمنّ على جسدك وروحك على السواء ! كن مطمئنا ، فان هذه اليد أَلِفتْ منذ عهد بعيد أن تقبض على اللجم ، والعين قد مَرِنت على سلوك أقوم الطرق . وقد تعلمنا فى استراسبورغ كيف نسوق المركبات ، حين ذهبنا إلى هناك فى صحبة ذلك البارون الصغير . (١) وفى كل يوم كنت أتولى قيادة

(١) كثيرا ما يبدأ القسس حياتهم — خصوصا فى الزمن الذى نحن بصدده — كمؤدبين لأبناء الأشراف

المركبة . فتمرق بنا من وسط الباب الكبير المرجع للصدى، وتعدو بنا فى طريق تربة . الى المروج ، والى الغابات البعيدة، وسط الجموع الغفيرة من الناس الذين لاعمل لهم غير التنزه طول النهار . »

عند ذلك تجلد الصيدلى ، بعض الشيء . فصعد المركبة . وجلس فيها جلسة الرجل الحازم المتأهب فى كل لحظة للوثوب إلى الخارج .

وانطلق الجوادان تنقاء الدار . وبهما الى الاصطبل شوق. فكان يتصاعد من تحت سنابكهما سحب من العِثْيَرِ المثار .

وقد وقف الفتى طويلا ، يحدق فى الغبار إذ يصعد . ثم يتفرق فى الهواء ذرة ذرة . وهو تائه العقل حائر اللب ، لايفكر فى شىء .

....

النشـــيد السابع

ايراتو ERATO

(الهة الغزل والنسيب)

دروتيه

لقد يقف ابن السبيل عند الغروب ، ينعم النظر فى ذكاء ، ثم يلقى عليها وهى آخذة فى الاختفاء بسرعة نظرة عجلى ، فلا يزال يرى صورتها تهتز وسط الأدغال القائمة . وفوق الجنادل والصخور ؛ وحيثما اتجهت نظراته . فثمّ وجهها يلمع مهتزا فى ألوان بديعة . . . كذلك كان هرمن . فحيثما نظر رأى صورة الغانية الفتانة تمر أمامه على مهل . وكأنما تسير فى الممر الضيق الذى يخترق مزرعة القمح .

لم يلبث أن أيقظ نفسه بعنف من هذه الرؤيا التى أدهشته . ثم أدار وجهه نحو القرية ، فازدادت دهشته . إذ رأى القوام

العالى لتلك الفاتنة مقبلا نحوه . فأنعم النظر ، ورأى أن هذا لم يكن وهما . وأن هذه هى حقا . قد اقبلت وهى تحمل فى يديها جرتين : قد أمكست بقبضتيهما . وجعلت كبراهما فى اليمين والصغرى فى اليسار . وهى تمشى بجد ونشاط نحو الينبوع .

تقدم هر من نحوها مسرورا ؛ وقد بعث منظرها فى قلبه القوة والعزم . وخاطبها ، وقد تولاها شىء من الدهشة ، فقال : « هأنذا ألقاك مرة أخرى ، أيتها الغادة الباسلة ، دائبة على عمل جديد تساعدين به العاجزين وتحيين به النفوس البائسة . لكن حدثينى ! كيف قصدت وحدك الى هذا الينبوع على بعده . وأكثر من بالقرية يكتفون بما هنا لك من الماء ؟ ولوان هذا الماء حسن المذاق . مفضل على سواه ؛ وكأنى بك ستحملينه الى تلك المريضة . التى أنقذتها بما بذلت لها من رعاية وعناية .

فحيته الفتاة أحسن تحية ، وقالت : « لقد جوزيت أحسن الجزاء على أن قطعت كل هذا الطريق الى الينبوع ، بأن لاقيت الرجل الكريم ، الذى أمطر علينا الهبات : وإن النفس لتسر لمرأى المحسن ، كما يسرها منظر الاحسان . فتعال وانظر

بنفسك إلى الذين نَعِموا بما منحتهم ، وتلقَّ منهم ، على صنيعك ، أطيب الحمد والثناء .

وإنك لتراني وقد قطعت هذا الطريق ، لكي أغترف من هذا الينبوع الذي يتدفق منه الماء صافياً طهوراً . فما ذلك إلا لأن الناس بإهمالهم قد كدروا كل ما بالقرية من ماء . وتركوا الخيل والثيران تخوض في الينبوع الذي يسقي القرية وأهلها . وكذلك لوّثوا جميع الأحواض بما غسلوا وما رحضوا فيها . حتى لم تعد هنالك بئر واحدة نظيفة . لأن كل فرد لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ويريد أن يقضي حاجته بسرعة ، من غير أن يكترث لحاجات الناس . »

ولم تكد تتم حديثها ، حتى اخذت تنزل الدرجات وهرمن الى جانبها ؛ ثم جلسا ، كلاهما ، على الجدار الصغير حول الينبوع . وانحنت فوق الماء لتغترف منه . وأمسك هو بالجرة الأخرى ومال فوق الحوض ليغترف . فأبصرا صورتيهما ، وقد ارتسمتا في زرقة السماء الصافية المنعكسة على صفحة الماء . وهنالك نظر إليها ونظرت إليه ، وحياها وحيته ، في تلك المرآة الصافية المصقولة .

وقال لها ، وقد سر وطرب ، : « ناولينى شربة ! ، فأمسكت له جرتها حتى شرب . ثم استراحا قليلا وقد اتكأ كل منهما على جرة : وقالت هى للصديق : « انى أراك هنا ، بعيدا عن الموضع الذى قابلتك فيه ، بلا خيل ولا مركبة . فكيف وصلت إلى هذا المكان ؟ »

فأطرق هرمن مفكرا ، ثم رفع رأسه ، وجعل يحدق فى عينيها ، بنظرات الصديق المخلص : فأحس كأنما قد عاد إلى قلبه الهدوء والطمأنينة . ولكن كان يرى من المستحيل أن يحدثها حديث الهوى . إذ لم يلمح فى نظراتها الحب ، بل العقل والروية يأمرانه أن يتكلم بعقل وروية . فملك زمام نفسه بسرعة . وقال : « دعينى أحدثك وأجبك صراحة على سؤالك: إنى جئت إلى هنا من أجلك أنت . ولست أرى داعيا لأن أخفى عنك هذا . إنى أعيش سعيدا مع والدين برين ، أعاونهما فى شئون الدار ، وفى ادارة العقار . إذ ليس لهم من الأبناء غيرى . وأعمالنا متعددة الشكول ، متشعبة النواحى . وأكبر ما أعنى به المزرعة ، أما والدى فيدير المنزل بجد وهمة . والوالدة النشيطة تعمل أبدا وتدأب فى سائر مرافق الحياة . وما إخالك

الا قد مارست هذه الأعمال جميعا ، وعرفت ماتسببه الخادمات لربة الدار من عناء ، بالخيانة حينا وبالرعونة أحيانا . فتضطر لأن تبدل خادما مكان خادم . وهى بهذا إنما تبدل نقصا مكان نقص ، وعيوبا جديدة مكان العيوب القديمة . لهذا كانت أمى منذ عهد بعيد تتمنى أن ترى فى الدار فتاة تعاونها لا باليدين فحسب ، بل بالقلب والضمير ايضا . فتكون لها عوضا من ابنتها التى سلبتها المنون إياها من قبل .

« واليوم وقد أبصرتك إلى جانب المركبة ، ورأيت الساعدين القويين . والصحة البادية فى كل جارحة من الجوارح وسمعت منك الألفاظ الممتلئة عقلا ، تملكنى الدهشة والاعجاب وعدت مسرعا إلى الدار . وجعلت أمدح هذه الغريبة بالذى تستحقه أمام الوالدين والأصدقاء . والآن عدت اليك لأحدثك بالذى يبغونه منك . . اغفرى لى ترددى فى الكلام وحيرتى . »

فقالت له : « لاتخش ضيرا فى أن تتمّ حديثك ، وليس فى الذى ستقوله مايشيننى . وإنى لم أحس ، وأنا أصغى اليك غير عاطفة الشكر ، فقل بصراحة ماتريد أن تقوله . فليس فيه مايزعجنى . إنك تريد أن تدعونى لأكون لوالديك خادما

أمينة ، كي أعنى بشئون منزلكم ، الذى أعدد تموه أحسن اعداد .
وأنت تظن أنك ستجد فىّ فتاة جادة ، تقبل على العمل باسمة الثغر ، ليس فى طبعها خشونة ولا جحود . . لقد كنت فى عبارتك موجزاً . وسيكون ردى عليها موجَزاً . أجل إنى قابلة أن أذهب وإياك وأن ألبى نداء القدر . وقد أتممت ما على هنا من واجبات . فأسلمت النفساء إلى أهلها . وكان سرورهم بالنجاة لا حدله . وأكثر الشريدين قد التقوا بذويهم ؛ والآخرون سيتقابلون قريبا : وهم جميعا يحسبون أن سيعودون إلى أوطانهم بعد أيام قلائل ؛ وهذا دأب الطريدين إذ يغررون بأنفسهم. أما أنا فلا أخدع نفسى بالأمانى الكذاب فى هذه الأيام العصيبة ، التى تنذرنا بما هو أشد منها هولا . إن الروابط التى تصل بين أواصر العالم قد انحلت عراها . فأى قوة تستطيع أن توثقها مرة أخرى . اللهم إلا قوة الشقاء الجسيم ، الذى يتهددنا ويوشك أن يحل بنا ؟

«ولئن أتيح لى أن أكون خادما فى بيت رجل جليل ، وأن أعول نفسى من هذا السبيل ، فى رعاية امرأة طيبة صالحة ، فانى أقبل هذا عن رضى وارتياح . والفتاة التى تقضى أيامها

فى التنقل من أرض إلى أرض ، يكثر حولها القيل والقـال . أجـل إنى ذاهبـة معك ، فأمهلـنى حتى أحمـل الجرتين الى الأصدقاء ، وتعال لـكى تراهم حين يستقبلوننا . »

أصغى الفتى مسرورا إلى هذا القرار الذى قطعته الغادة عن رضى وارتيـاح ، وجعـل يسأل نفسه هـل يفضى اليها بالحقيقة الآن ؛ فبـدا له أن الأوفق أن يتركها وما توهمت . ثم يذهب بها الى منزله ، فلا يحدثها حديث الحب إلا هناك . ثم لاحظ فى شىء من الأسف أن باصبعها خاتما من الذهب . فلم يحر كلاما ، وأكتفى بالانصات لما تقول .

فقالت له : « لنرجع أدراجنـا الآن ! فان النـاس يوجهون قارس اللوم إلى الفتيات ، اللواتى يطلن المكث عند البئر ، مع ان الكلام لدى الينبوع المتدفق من أحب الأشياء الى النفس . »

عند ذلك نهضا واقفين ، ونظرا مرة أخرى فى الماء . فبعثت هذه النظرة فى كل منهما احساسا رقيقا ، وشعورا عميقا .

ثم حملت الجرتين ممسكة بقبضتيهما . وصعدت الدرج وهرمن على أثرها . وقد طلب إليها أن تناوله أحدى الجرتين كى

يقاسمها العبء الذى تحمله ، فقالت : « دعهما لى . فان فى حمل الاثنين معا ، ما يبعث على اتزان الجسم ، فلا يتعبنى حملهما . ويجب أن أذكر ان السيد الذى سيكون لى آمرا ، أولى به ألا يقوم الآن بخدمتى . وفيم تنظر إلى هذه النظرات الحزينة ؟ كأن الذى أنا صائرة اليه أمر يبعث الحزن والهموم . ان واجب المرأة يقضى عليها أن تتعلم كيف تخدم ، كى تؤدى وظيفتها فى الحياة . فبالخدمة وحدها تستطيع المرأة ، مهما طال المدى ، أن تنال السيادة التى هى بها جديرة وحقيقة . فتصبح لها فى دارها الكلمة العليا .

« وهكذا تأخذ الأخت مبكرة فى خدمة شقيقها وفى خدمة والديها . فحياتها أبدا حركة دائمة : جيئة وذهاب ، ورفع ووضع ، وإعداد أشياء وإجهاد للنفس من أجل الغير . . وما أسعدها حين تعتاد نفسها كل هذا . فلا ترى فى شىء غضاضة . ولا تزهد فى عمل مهما كان حقيرا تافها . وسيان لديها أفى ساعات الليل تعمل أم فى ساعات النهار . . . أجل ما أسعدها إذ تصبح وقد نسيت نفسها تماما ، فلا تحيا إلا من أجل الآخرين !

وما أحوجها إلى كل هذه الفضائل حين تغدو والدة : حين

يوقظ الطفل الرضيع أمه ، طالبا الغذاء ، وهى بعد ضعيفة هزيلة ، وما كفاهاما تعانى من ألم ، حتى تضطلع بهموم جديدة .

ولن يستطيع عشرون رجلا أن ينهضوا بهذا العبء ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وفى الحق ان هذا ليس من شأنهم ، ولكن لا أقل من أن يعترفوا للمرأة بالفضل ، ويقابلوه بالشكر . »

بهذه الكلمات نطقت الغادة ، مخاطبة رفيقها ، وهو لا ينبس بكلمة . وقد اجتازا الحديقة ووصلا إلى فناء الجرن . حيث اضطجعت النفساء ، يصحبها الشقيقتان اللتان نجتا من الهلاك . وقد دخلتا عليها فى تلك اللحظة فاذا هما ملكان طاهران . ودخل من الناحية الأخرى فى الوقت نفسه ذلك القاضى الوقور . ممسكا بيده طفلين قد يئست من لقائهما أمهما المسكينة ، واستطاع الشيخ الآن أن يجدهما وسط هذه الجماهير المضطربة . وقد وثبا مسرورين ليحييا أمهما الراقدة . ويحييا الطفل الرضيع الذى سيغدو لهما رفيقا يلاعبانه ويداعبانه . ثم وثبا نحو دروتيه وسلما تسليم الصديق المتحمس . وطلبا منها خبزا وثمراً وماء ليشربا ؛ فأمسكت الجرة وناولتهما الماء فشرب الاطفال ،

وسقت النفساء وأختيها ، وسقت القاضي . وقد شربوا جميعا وارتووا ، وأثنوا على الماء القراح ، الذي طاب مذاقا ، وفيه غذاء وشفاء .

وعند ذلك قالت الغادة وهي تنظر اليهم نظرات جد : « أيها الأصدقاء ! إني لأخشى أن تكون هذه آخر مرة أدني الجرة إلى ثغوركم فأبلل بالماء شفاهكم . ومنذ اليوم ، اذا اشتد بكم الحر فملتم إلى الظل تطلبون الراحة ، وتطفئون الغلة إلى جانب عين جارية . فهنالك فلتذكروني ، ولتذكروا ما قمت به من خدمة كان يبعثها حبي لكم ، لا مجرد القرابة التي تجمعنا . أما ما أسديتم إلي من جميل فاني ذاكرته مدى الحياة . لعمري إني لأحزن لفراقكم . ولكننا أصبحنا بحال أنا فيها أدنى أن أكون عبئا عليكم من أن أكون عونا لكم . وإذا حيل بيننا وبين أوطاننا فليس لنا بد ـ قريبا أو بعيدا . من أن نتفرق في بلاد الغربة .

« انظروا ! هذا هو الشاب الذي ندين له بهذه الهدايا : بهذا الكساء للطفل الرضيع ، وتلك الأطعمة الشهية . لقد أقبل الساعة يسألني أن أذهب الى داره ، لكي أقوم بخدمة والديه

صاحبي الغنى والجاه . فلم أرد هذا الطلب . لأن واجب الفتاة يقضى عليها بأن تخدم ؛ وانها ليشق عليها أن تجلس فى البيت مستريحة ، تاركة لغيرها أن تقوم بخدمتها . لهذا سأمضى منشرحة الصدر مع هذا الشاب ، وقد ألفيته عاقلا ذكيا : وكذا سيكون الوالدان من غير شك . كما يليق بقوم ذوى يسار .

«فيا صديقتى العزيزة أستودعك الله : ولتقر عينك برضيعك الذى ينظر إليك الآن نظرات ملؤها الصحة والحياة . فاذا ما ضممته إلى صدرك وهو فى هذه اللفائف المتعددة الألوان . فاذكرى الشاب الذى أهداها إلينا . والذى سأنال منه أنا أيضا فى المستقبل ما به اكتسى واغتذى . وأنت ايها الرجل الجليل (مخاطبة القاضى) لك منى جزيل الحمد على أن كنت لى أبا ونصيرا فى مواقف عديدة . »

ثم ركعت جاثية بجانب الأم الراقدة . وقبلت وجها بللته العبرات . وأنصتت اليها ، وهى تمطرها صالح الدعوات بصوت هادىء خافت .

وفى هذه اللحظات كان القاضى الفاضل يقول لهرمن . « إنك أيها الصديق لجدير بأن تعد من أعقل أصحاب المنازل .

الذين يعرفون كيف يختارون لادارة دورهم أكثر الناس دراية وكفاية . وعهدى بالناس اذا أرادوا اقتناء الخيل أو البقر أو الغنم ، سواء بالمبادلة أو بالشراء ، ان ينعموا النظر .. ويحققوا .. ويدققوا . أما الانسان الذى يستطيع أن يصلح كل شيء فى الدار ويحفظه ، ان كان صالحا ، وأن يفسد كل شيء ويخرب كل شى بالخرق والطيش . فانه يؤتى به إلى الدار بمحض الحظ والمصادفة . فلا يلبث أصحاب الدار أن يندموا على تسرعهم حين لا يجدى الندم . أما أنت فيبدو لى أنك قد فهمت هذا الأمر جد الفهم . وقد لعمرى عرفت كيف تختار لخدمتك وخدمة أبويك فتاه قل نظيرها .. فاقدرها حق قدرها ! وما دامت هى القائمة على بيتكم . فلن تشعر بفقد الأخت . ولن يحس أبواك فقد ابنتهما . »

وفى تلك اللحظة أقبل كثير من أقارب النفساء يحملون الهدايا . ويسوقون إليها البشرى بأن ستنقل الى مسكن خير من الذى هى فيه . وقد سمعن جميعا ما قر عليه رأى الفتاة . فنظرن إلى هرمن نظرات ذات معان ، تنبىء عما يدور بخاطرهن من أفكار يحاولن إخفاءها . وقد مالت واحدة منهن

الى صاحبتها وهمست فى أذنها قائلة : « ولئن انقلب المولى عروسا فقد سعد جدها . »

عند ذلك قبض هرمن على يدها وقال لها : « هلم بنا ! إن النهار يوشك أن ينقضى . والبلدة بعيدة . » فجعلت دروتيه تعانق النساء ، وهى تودعهن . فجذبها هرمن وهى تحيي الجميع أحسن تحية . وأمسك الأطفال بثوبها وهم يبكون وينتحبون ولا يريدون أن يدعوا أمهم الثانية تغادرهم . فجعلت كل من النساء تأمرهم بأن يخلدوا الى السكون ، قائلة : « لم هذا البكاء ؟ وهى انما تذهب إلى المدينة لتأتيكم بتلك الحلوى الكثيرة . التى أوصى بها أخوكم الرضيع . حينما حمله اللقلق الصغير إلى هنا (١) مارا بدكان الحلوانى . وسترونها بعد قليل . وقد عادت اليكم بالقراطيس الذهبية الجميلة . »

هنا لك أطلق الأطفال سراحها . فانطلق بها هرمن . ولأيا ما استطاع أن ينجو بها من كل هذا العناق . ثم من الاشارات بالمناديل بعد أن ابتعدا .

---

(١) فى بعض بلاد أوربا اذا ولد طفل ، وجعل الاطفال الصغار يسألون من أين جاء هذا الصغير : فيجيبهم الكبار بأن قد جاء به طير اللقلق أو شيء آخر . والعبارة قد تختلف قليلا من بلد إلى بلد

النشـــيد الثامن

ملبو مينى MEL POMENE

(الهة المآسى)

هرمن ودروتيه

انطلق الاثنان ، وأمامهماذكاء قدمالت للغروب ، مستترة خلف غشاء كثيف من السحاب المنذر بالرعد وبالأمطار . والشمس منوراءذلكالقناع تبعثبنظرات ملتهبة ، طورا هنا وطوار هنالك ، فتسكب على الفضاء أشعة سحرية مبهمة ، قد كمن فيها نذير الشر .

قال هرمن : « عسىألايرسل إلينا هذا السحاب المكفهر بَرَداً أو وابلا منهمرا ، فيفسد غلة هذا العام على حسنها . »

وقد سر الاثنـان لمنظر القمح ، وقد تمايلت سنابله على سوقه . ويوشك أن يبلغ فى الطول قامة الصديقين اللذين

يسيران وسطه الآن .

وقالت الفتاة لصاحبها : « أيها الرجل الصالح ، الذى امسيت له مدينة بهذا المصير الحسن ، وبهذه الدار التى ستؤوينى وتظلنى ، بينما يبيت كثير من الطريدين فى العراء ، عرضة للعواصف والأمطار . حدثنى الآن ، وقبل كل شىء ، عن أبويك اللذين سأقوم بخدمتهما ، واللذين أميل اليهما بكل قلبى . فأطلعنى على جلية أمرهما ، لأن من عرف مولاه سهل عليه ارضاؤه . بأن يكون حريصا على كل شىء يراه هو فى المرتبة الأولى ، وقد وقر فى نفسه أنه أكثر خطرا من كل شىء سواه . لهذا سألتك أن تخبرنى كيف أستطيع ارضاء الوالد والوالدة . »

فأجابها الفتى : « إنك أصبت كل الاصابة إذ تسألين عن خلق الوالدين وعن طباعهما . فقد قضيت عمرى وأنا أحاول عبثا خدمة أبى وارضاءه بأن أقوم بادارة العقار كله ، كأنما أديره لنفسى . وأتعهد الحقول والكروم صباحا ومساء . أما والدتى فمن السهل أن أكسب رضاها ، لأنها تقدر الجهود حق قدرها .

وأنت أيضا ستصبحين لديها خير الفتيات وأفضلهن ، اذا

عنيت بأمر المنزل كأنه منزلك . أما والدى فليس من هذا الطراز ، لأنه يحب المظاهر البراقة الخلابة . ولا تتهمينى أيتها الفتاة الطيبة بالبرود أو بالقسوة، أن كشفت لك عن أمره ، وأنت بعد غريبة عنا . وإنى أقسم لك أن هذه أول مرة انطق فيها بمثل هذا القول . وما أنا ممن يحبون كثرة القيل والقال . لكن مرآك يبعث الثقة فى النفس ، ويجعلنى مطمئنا لأن أتحدث اليك فى مثل هذه الأمور . فوالدى يتطلب فى الحياة شيئاً من المداهنة . ويود أن يبالغ الناس فى اظهار الحب له والاجلال والاكرام . ولقد يسر أحيانا من خادم خائن يعرف كيف يستغل طبعه هذا . وبالعكس قد لا يسره المخلص الأمين . »

فقالت الفتاة وهى تسرع الخطى . وقد أخذ الليل يرخى سدوله : « لكنى أرجو أن اكتسب رضى الاثنين . فطبع الأم موافق طبعى تماما . وعدا هذا فانى قد ألفت منذ الصبى أن ألاطف وأجامل . فان جيراننا الفرنسيين فى الزمن الغابر (١) كانوا يجعلون للادب واللياقة أهمية كبرى . فكان التمسك بالآداب فرضا على الأشراف النبلاء وعلى الطبقات الوسطى

---

(١) أى قبل أن تبدل الثورة من طباعهم

من أهل المدن ، والفلاحين العاملين على حد سواء . فكان الكل يفرضها فرضا على أهله وعشيرته . وقد سرت إلينا ، نحن جيرانهم من الألمان ، تلك العادات ، فترى الاطفال عندنا فى الصباح يقرئون الآباء السلام . مكبين على أيديهم يقبلونها مظهرين نحوهم كل إجلال وإعظام . وهكذا دأبهم طول النهار .

فهذه كلها أمور ألفتها ودرجت عليها منذ الحداثة حتى باتت لى طبعا وخلقا ، وسأبديها كلها تلقاء الشيخ الوالد .

ولكن من مخبرى الآن كيف ألقاك أنت وكيف أعاملك: أنت الابن الوحيد الذى سيكون لى فى المستقبل سيدا آمرا ؟ »

وعند ما نطقت الفتاة بهذه العبارة ، كانت قد وصلت ورفيقها الى شجرة الكُمَّثْرَى . وقد أشرق البدر التمام . وجعل يرسل ضياءه من السماء ، واختفت الشمس تحت الأفق فلم يبق منها شعاع ولا ضياء : فكان أمامهما أنوار مضيئة كأنها النار الساطع ، وظلال معتمة كظلام الليل البهيم .

وقد أنصت هرمن إلى ذلك السؤال ، وهو واقف معها تحت ظل الدوحة الباسقة ، فى أحب بقاع الأرض الى نفسه ، حيث كان يذرى الدمع فى ذلك اليوم بعينه ، من أجل هذه

الطريدة الواقفة بجانبه .

جلست الفتاة فى ظل الدوحة لتستريح قليلا . فأجابها الفتى العاشق على سؤالها ، وهو قابض بيده على يدها : « دعى قلبك يوح إليك بما تفعلين ، ثم أجيبي وحيه ، ولبى نداءه فى كل شيء . »

ولم يجرؤ أن يزيد على هذا حرفا ، وكان الوقت مؤاتيا ، والفرصة سانحة ، ولكن خشى أن يتعجل كلمة النفى . وآلمه حين قبض على يدها أن أحس ذلك الخاتم على أصبعها . ولهذا جلس الى جانبها لا يحرك ساكنا ، ولا ينطق بكلمة .

لكن الفتاة قطعت حبل الصمت وقالت : « ما أبدع ضياء البدر وما أعذبه ! إنه ليحاكى ضوء النهار ، حتى لأبصر من هنا ، فى جلاء ووضوح ، ديار المدينة وقصورها ، وأرى هناك غرفة تحت نافذة ، ولقد استطيع أن أحصى ما بها من قطع الزجاج . »

فقال الفتى وهو يكتم عواطفه : « ان هذا الذى ترينه هو منزلنا ، حيث أذهب بك الآن . وتلك الغرفة الملاصقة للسقف هى غرفتى ، وقد تغدو غرفتك قريبا ، لأننا كثيرا ما نغير من نظام المنزل . وهذه هى مزارعنا ، وقد نضجت

ثمارها وحان وقت الحصاد . وفى ظل هذه الشجرة نجلس وقت الظهيرة لنتناول غداءنا .

والآن هلم بنا نمش وسط الكرمة ، ثم نجتاز الحديقة إلى الدار . فانى أرى السحاب المطير يوشك أن يغشانا ويغشى البدر التمام ، وهذى بروقه أخذت تلمع . »

ثم نهضا من تحت الشجرة ، وجعلا ينحدران وسط المزرعة ، ما بين قمح قد علا ونما وسرهما ما يحيط بهما من ضياء لامع منتشر . ولم يلبثا أن وصلا الى الكروم ، وتحت عُرُشها ظلام حالك ، فجعل الفتى يقودها ، وهو ينزل بها تلك الدركات الحجرية الخشنة ، الممتدة وسط العريشة . فأخذت الفتاة تنزل فى ريث وأناة ، مسندة يديها الى كتفيه . وكان القمر يطل عليهما من خلال الكرم بأشعة ضعيفة تهتز وتضطرب . ثم لم يلبث أن غشيته السحب وخلفهما فى ظلام قاتم . فجعل هرمن يمشى بتؤدة ، والفتاة مستندة اليه ، على قوتها . وهى تمشى خلفه بدركة واحدة . ولكنها لجهلها الطريق ، ولما بالدرج من خشونة وسوء انتظام ، تعثرت فى مسيرها ، وزلت بها رجلها ، وكأنما التوت قدمها ، فسمع لها صوت .

ومالت الفتاة لتهوى ، لولا أن أدار الشاب وجهه مسرعا . وبسط ذراعيه وأمسك بهما جسمها المحبوب . فسقطت متساندة على كتفيه ، وقد ألتصق فى تلك اللحظة صدرها بصدره ، ولامس خدها خده ، ووقف هو ساكنا كأنه تمثال من المرمر . وليس فى قلبه ذرة من العبث . فلم يضمها الى صدره إلا بمقدار ما يمنعها من السقوط . ومع ذلك فقد كانت عبئا جميلا ، وكان يحس حرارة صدرها وقد لامس صدره ؛ وعبير أنفاسها الشافية يهب على شفتيه . لكنه كان محتملا لجثمانها ، وليس فى صدره غير شعور الرجل القوى العزيمة .

أما هى فسرعان ما أخفت ما بها من ضر . وقالت وهى تضحك : « فى عرف الناس ذوى العقل والبصيرة ، اذا التوت الرجل عند عتبة البيت فان هذا ينذر بشر مستطير . وكان أولى بك أن تجد لى فألا خيرا من هذا الفأل . والآن فلنتمهل قليلا ، كى لا يلومك أبواك على أن أحضرت اليهم خادمة عرجاء . فتبدو أمامهم ربة دار كثير الاهمال . »

....

النشـــيد التاسع

أورانيـا URANIA

(إلهة الفلك)

مستقبل !

أى آلهات الفنون (١) ! يامن يسرهُنَّ أن يُحْسِنَّ الى العاشقين المغرمين ! لقدأخذتن بيدهذا الفتى الصالح،وسلكتن به اسلم الطرق ، حتى لقد ضممتُنَّ صدره الى صدر حبيبته ، من قبل أن تعقد بينهما خطبة ، ألافلتساعدن الآن على توثيق تلك الرابطة التى ستجمع بينهما ، ومَزِّقن تلك السحب التى تعكر صفاءسعادتهما. واقصصن علينا،قبل كل شيء،مايجرى الآن بالدار.

(١) الاستنجاد بالموزات (Musen) شيء مألوف فى الشعر الحماسى . ولكن جوته لم يلجأ إليه إلا فى هذا الموضع . بعد أن كاد يفرغ من كتابة قصته فى أسلوب سهل خال من كل تكلف

* * *

عادت الام للمرة الثالثة الى حجرة الرجال ، وقد بلغ منها القلق مبلغه ، وكانت قد غادرتها منذ لحظة ، حينما طغى السحاب على القمر . واحست بدنو العاصفة . وساورها الخوف على ابنها ، لتخلفه إلى تلك الساعة وسط الليل البهيم وأخطاره .

فجعلت توجه إلى الصديقين قارس اللوم ، إذ رجعا دون أن يتحدثا إلى الفتاة ، أو يقولا كلمة من أجله . بل تركا الفتى وشأنه ، وعادا مسرعين .

فقال لها الوالد : « لا تجعلي الشر أسوأ مما هو ! فنحن مثلك قد أضجرنا الانتظار ونريد أن نستقر على حال . »

وأخذ الصيدلي يتكلم بهدوئه المعهود دون أن يتحرك من مكانه ، فقال : « حينما تمر بي ساعة كالتي نحن فيها الآن ، يستحوذ فيها على الناس القلق ، وينضب معين الصبر ، عند ذلك أبادر بشكر والدي المرحوم ، الذي استأصل من نفسي جذور القلق والضجر ، حين كنت في الدار صبيا ؛ فلم يبق منها في صدري أثر ، وأمسيت حليما صبورا ، كأكبر العقلاء وأحزمهم . » —

فقال له القسيس : « وأى آلة استخدمها أبوك الشيخ للوصول الى هذا الغرض ؟ » فأجاب الآخر : « يسرنى أن أقص عليكم ذلك القصص . وفى وسع كل منكم أن يستفيد منه أجل الفوائد . كنت مرة ـ وأنا بعد صبى ـ أنتظر بفارغ الصبر قدوم المركبة التى ستقلنا فى يوم الأحد إلى البئر تحت أشجار الزيزفون . لكن المركبة لم تجىء . فجعلت أجرى كالوزغة من مكان إلى مكان ، صاعدا نازلا ؛ طورا أنظر من الباب ، وطورا أطل من النافذة . وأحسست حكة فى يدى ، فجعلت أحدث فى المائدة خدوشا ، واضرب الأرض برجلى ، بل كدت أبكى بكاء . . . رأى الوالد كل هذا وهو فى سكونه المألوف ، ولكنه لما آنس أن الهياج قد بلغ منى درجة الجنون ، أخذ بذراعى فى هدوء ؛ ومشى بى إلى النافذة ، وألقى على سمعى هذه العبارة الحكيمة : « أنظر الى هناك ! ترذلك النجار قد أغلق دكانه اليوم ! لكنه سيفتحه غدا ؛ وعند ذلك يتحرك المنشار وتتحرك (الفأرة) ولا يزال يجد ويعمل من الصباح الى المساء . . . لكن تذكر ولا تنس أنه سيأتى يوم يشتغل فيه ذلك النجار هو وجميع مساعديه ، كى يصنعوا لك

نعشا، يهيئونه ويتمونه بسرعة. ثم يبادرون بنقل هذا المنزل الخشبي إلى هنا. وهذا المنزل هو المصير الذى يؤول اليه الناس جميعا سواء منهم من كان صابرا، أو من كان ضجرا، وبعد ذلك يوضع المرء تحت سقف ثقيل.

« كل هذا رأيته ماثلا فى خاطرى: فكأنما رأيت الألواح تمد، واللون الأسود يعد، لكى تصبغ به الألواح. عند ذلك زايلنى الضجر، وجلست أنتظر المركبة فى صبر وسكون. ومنذ تلك اللحظة، اذا أبصرت الناس فى هرج ومرج من جراء أمر أقلقهم انتظاره. عند ذلك يخطر النعش ببالى فألزم الهدوء. »

فتبسم القسيس ضاحكا وقال: «ان منظر الموت، وإن أثر فى النفس، لا يزعج الرجل العاقل ولا يرى فيه المؤمن أنه الغاية التى ليس وراءها شيء. فأما الأول فان منظر الموت يثير فى نفسه روح الجد والعمل، وأما المؤمن فانه يقويه فى ساعة المحنة بما يبعثه فى نفسه من الأمل فى السعادة المقبلة (١)

---

(١) أى أن الناس أمام الموت إما رجل « يهتدى بفكره أو رجل يهديه إيمانه ودينه. وليس معنى هذا أن المتدين لا يفكر أو أن المفكر لادين له. وإلا لما جاز القسيس أن يفوه بهذا الكلام. وكل ما هنالك أن الانسان اذا استرشد بفكره أو بإيمانه فليس فى الموت ما يدعو إلى الجزع.

فيصبح الموت فى نظر كل منهما هو الحياة بعينها . . . وقد كان خطأ من الوالد أن صور لابنه — وهو بعد ذو شعور حساس — الموت ، فى شكله الرهيب ، وانما يجب علينا أن نرى الشباب مافى الشيخوخة من نضوج وجلال، ونُرى الشيوخ منظر الشباب ، لكى يجد الاثنان لذتهما فى مراقبة تلك الدورة الأبدية ، وكلها حياة فى حياة . »

* * *

فى تلك اللحظة فتح الباب ، وظهر الفتى والفتاة ، فى روعة وفى جلال ، فدهش الصديقان ، ودهش الأبوان اذ أبصرا العروس ، وقوامها يكاد يدنو من قوام الفتى ، حتى لقد خيل اليهما أن الباب أصغر من أن يسع هذين القوامين السمهريين.

خطا الاثنان معا فوق العتبة ، وبادر هرمن بتقديمها لوالديه بألفاظٍ عَجِلة سريعة . فقال : « هذه فتاة تتمنيان أن يكون لديكما مثلها . فأكرم وفادتها أيها الوالد العزيز ، وأنتِ يا أماه ! سليها عن شئون المنزل جميعا ، لكى تدركى أنها أجدر الناس بأن تقربيها اليك ، وتدنيها منك . »

والتفت هرمن الى القسيس ، وانتحى به ناحية ، وقال له

همساً : « أيها السيد الجليل ! أعنى بالله على الخروج مما أنا به من مأزق. وساعدنى على حل عقدة ، أخشى أن تسوء حالها ، إن لم نتداركها بسرعة . فأنى لم أطلب إلى الفتاة أن تكون لى خطيبة . وهى تظن أنها تنزل البيت خادماً ، لا عروسا . وأخشى أن تفر هاربة منا لمجرد ذكر الزواج . فلنمض فى سبيلنا بسرعة ؛ ويجب ألا ندعها فى خطئها هذا طويلا . وأنا كذلك لا أطيق البقاء فى ظلام الشك طويلا . فأسرع بربك ، وأظهر الآن ما نعهده فيك من عقل وحكمة.»

عند ذلك التفت القسيس الى الجماعة يريد مخاطبتهم ، ولكن كانت الفتاة ،ويا للأسف ،قد أخذمنها الكدر مأخذه، حين أنصتت لمقالة الوالد ، ولو انه تكلم بنية حسنة.وبفكاهته المألوفة . فقال : « نعم ما فعلت يا بنى ! ولقد سرنى ان يتشبه الولد فى حسن ذوقه بالوالد ، الذى كان لا يصطحب الى المراقص غير أجمل الفتيات . ثم اختار أخيرا أبهى النساء زوجا له وها هى الآن : الأم العزيزة المحبوبة . ولعمرى إن الرجل — عند اختياره لزوجه — ليعلن للناس عن حصافته وعن عقله ، وعما اذا كان يأنس فى نفسه فضلا وجدارة . أما أنتما

فلم تكونا بحاجة الى تفكير طويل ، قبل أن تقطعا برأى . وأنت يا ابنتى ما كان لك أن تترددى طويلا فى قبول هرمن . »

وكان هرمن فى تلك اللحظة يخاطب القسيس، فلم يسمع من كلام أبيه الا نصفه ، ولم يكد يعى ما تضمنه حتى جعلت جوارحه ترتعد ، وقلبه يخفق . وساد السكون فجأة . وصمت الجميع .

أما الفتاة فقد جرحت عزة نفسها لكلام حسبته تهكما . وسخرية منها . وبلغ الألم منها صميم القلب . وتصاعد الدم الى وجهها . فغطى الخدين وصفحتى العنق . ولكنها ملكت نفسها، وحاولت جهدها اخفاء ما تحسه من ألم . ثم قالت للشيخ : « لعمرى ان ابنك لم يعدنى لمثل هذا اللقاء ، حينما وصف لى السيد الوالد ، بأنه كأحسن ما يكون عليه أهل المدن من كمال وفضل . . ومع علمى أننى الآن بين يدى رجل أوتى من العلم والأدب النصيب الأوفر ، ويعرف كيف يعامل كل انسان بما هو أهل له . فانى أظنك لا تحس عطفا ولا رحمة نحو هذه البائسة المسكينة . التى دخلت دارك الساعة لكى تسهر على خدمتك . ولو كنت تحس نحوى القليل من الرحمة ، لما خاطبتنى بكل هذا التهكم المر ، مهما كنت تحسبنى دونك

ودون ابنك منزلة وقدرا . لقد جئت اليوم ، وليس بيدى غير حقيبة صغيرة ، إلى منزل فيه سائر الأمتعة . وقد توافرت فيه جميع وسائل الراحة والسعادة للذين يسكنونه . بدأنى أعرف نفسى منزلتها ، وأقدرها حق قدرها . فهل من النبل والكرم أن أُقَابَلَ ، بمجرد دخولى الدار . بهذا التهكم الذى يوشك أن يلقى بى إلى خارجها ؟ »

استولى على هرمن الرعب ،فأشار الى القسيس أن يتدخل، ويبدد غيوم هذه الأغلاط . فبادر هذا الرجل العاقل ، وأقبل على الجماعة. ورأى الفتاة الطريدة يتناهبها الكمد والألم ، واغرورقت عيناها بالدمع ، فلم يشأ أن يحل عقده الشك فورا . بل حدثته نفسه أن يبلو أمر الفتاة أولا ، ويستطلع دخائل نفسها ؛ فخاطبها بألفاظ يختبرها بها ، وقال : « حقا انك لمتسرعة ، قليلة التروى ، أيتها الفتاة الغريبة . إذ قَبِلت على عجل أن تكونى خادما عند قوم تجهلينهم وكأنك لم تفهمى أن هذا معناه أنك ستكونين خاضعة لسلطان سادة آمرين ، ما دمت قد تعاقدت معهم على القبول . وإن رضاك هذا ليحتم عليك الطاعة والخضوع لأمور كثيرة . وليس أشق شيء فى الخدمة تلك

الأعمال المنزلية المضنية . ولا العرق المتصبب من جراء المجهود الجثماني الذي لا ينقطع . لأن ما يعانيه رب الدار من هذا لا يقل عما يعانيه الخدم . كلا ؛ بل أشق ما في الخدمة أن تجاملي مولاك اذا ساء خلقه ، وأن تحملي ظلمه اذا ظلم ، وأن تنصتي إلى أوامره المتضاربة المتناقضة ، اذا كان متردداً لا يعرف لنفسه رأيا قاطعا . وأن تقبلي من ربة المنزل ما قد تبديه من عنف وشدة ، فهي سرعان ما يتملكها الغضب . وأن تتحملي رعونة الأطفال . وما قد يبدونه نحوك من قحة وغلظة .

« هذه كلها أمور تشق على النفس ، ولكن احتمالها أمر لا بد منه لتأدية الواجب المفروض على الوجه الأكمل ، من غير ملل ولا تذمر . وأكبر ظني أنكِ لست على شيء من المهارة في هذا . مع أنه ليس هنالك شيء أيسر من أن يمازح المرء فتاة على اعجابها بأحد الفتيان . »

سكت القسيس ، لكن كلماته نفذت الى قلب الفتاة الحساس . فلم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وظهرت أشجانها الكامنة . فجعل صدرها يعلو ويهبط ، والزفرات المحرقة تتصاعد منه . وقالت ، وهي تسكب الدمع غزيرا : « ان الرجل

الذى يتحدث بعقل وبمنطق ، ويريد أن يعظنا فى وقت المحنة ، قلما يدرك أن كلامه الفاتر الرزين لا يغنى شيئا فى تخفيف ذلك الشقاء . وأنّى لكم ، وأنتم فى السعادة والنعيم تمرحون ، أن تحسوا ما قد يحدث المزح من ألم وعذاب ؟ أما المريض الذى شفه الضنى فانه يحس الأذى مهما كان صغيرا أو تافها . ولن يجدينى الآن أن اتكلف الرضى والسرور . بل ليظهر الآن ما لو كتمته فى صدرى لكان فيما بعد سببا فى ازدياد همومى ، بل لقد يسلمنى الى كمد يقتلنى على مهل .

« فدعونى الآن أرجع أدراجى . فما كان لى أن أبقى فى الدار لحظة . بل الأجمل بى أن أنطلق الآن فالحق بأهلى وأقاربى الذين خلفتهم وسط الشقاء ، لكى أسعى فى تحسين حالى وحدى . أجل هذا هو رأيى الذى لن أحيد عنه . ولهذا أريد أن أعترف لكم قبل انصرافى بأمر كان فى وسعى أن أبقيه سرا مكتما طوال السنين .

« ان ما لقيته من الوالد من التهكم قد أثر فى أبلغ التأثير ، لا لأنى رقيقة الاحساس شديدة الكبرياء ؟ فليس هذا مما يليق بالخادمات ، بل لأنى حقيقة قد استشعرت فى قلبى ميلا

نحو هذا الفتى ، الذى قابانى اليوم ، منجدا ومنقذا ، ثم غادرنى فى الطريق ومضى ، فلم يزل بعدها ماثلا فى خاطرى. وجعلت أفكر فى الفتاة السعيدة التى اختارها قلبه . وحينما قابلته لدى البئر بعد ذلك فرحت فرحا شديدا ، كأنى قابلت أحد سكان السماء . ولهذا تبعته مسرورة حين طلب إلى أن أكون خادما. ولست أنكر أننى كنت أخدع نفسى أحيانا وأنا قادمة إلى هنا. فأصور لها أن قد لا يكون مستحيلا أن أصبح يوماً به جديرة، حين أصبح فى المنزل ذخرا وعونا لا يمكن الاستغناء عنه .

« لكنى الآن أدرك البون الشاسع الذى يفرق بين الفتاة الفقيرة و بين الشاب ذى اليسار، مهما رزقت من النشاط و الفضل.

« كل هذا أقصه عليكم كى تذكروا حقيقة ذلك القلب الذى جرحته كلمة قيلت مصادفة وعفوا ، وإنى لهذه المصادفة لشاكرة، والا فما يكون مصيرى اذ أكتم آمالى وأحلامى فى صدرى ، وأنتظر حتى أراه يقتاد عروسه الى الدار بعد قليل. وكيف أقدر حينذاك على تحمل كل تلك الآلام فى الخفاء ؟

« أجل إنى لسعيدة إذ أنذرت منذ الساعة بالذى أتوقع ، وسعيدة أيضا لأنى أفضت بما يكنه صدرى ، والداء بعد مما يمكن

علاجه ، قبل أن يتأصل ويستفحل . والآن حسبي الذى قلته : وليس لى الآن ما أبقى هاهنا من أجله . يعلونى الخجل والاضطراب بعد أن أدليت بمكنون سرى؛ وبالآمال الكواذب التى كانت تجول فى صدرى . وسأذهب الساعة ، ولن يمنعنى من الذهاب هذا الليل البهيم تغشاه السحب القاتمة ، ولا الرعد القاصف ، الذى يصم الأسماع هزيمه . ولا المطر الذى يتساقط وابلا منهمرا ، ولا الرياح العاصفة وزئيرها المخيف ، تلك أشياء قدمارستها من قبل . حينما اضطررنا إلى الفرار ، يتعقبنا الأعداء عن كثب ، فهأنا ذى ذاهبة الى هنالك ، ولقد ألفت منذ نزلت بنا هذه الكوارث ، أن مضى فى سبيلى وليس فى حوذتى شىء .

اذن استودعكم الله . لن أبقى هنا لحظة أخرى . »

ولم تكد تنطق بهذه الألفاظ ، حتى تراجعت الى الباب ، متأبطه الحزمة الصغيره التى جاءت بها . لكن الأم بادرت فطوقت الفتاة بذراعيها ، وصاحت بها وهى مندهشةٌ حائرةٌ : « ويحك ما معنى هذا كله ؟ وما هذه الدموع التى لا أفهم لها كنها ؟ كيف أدعك تبرحين الدار وأنت مخطوبة ابنى ؟ »

أما الوالد فنهض متذمراً ضجرا ، ونظر إلى الفتاة وهى

تنتحب ، وقال متأففا : « هذا جزائى إذن على أن أبديت منتهى البشاشة والملاطفة ، أن تكون هذه المنغصات هى آخر ما أختم به يومى . إن أبغض الاشياء إلى نفسى بكاء النساء هذا وإعوالهن ، الذى يزيد فى تعقيد مسائل كان من السهل حلها . بقليل من العقل والروية . فعليكم أن تجدوا المخرج لأنفسكم من هذا ، أما أنا فذاهب الى فراشى لاضطجع . » ثم تولى عنهم ليذهب الى حجرته ، التى لم يزل سرير الزواج منصوبا بها ، وكان من عادته أن يأوى إليها ليستريح .

لكن ابنه تعلق به ، وجعل يستعطفه قائلا : « لا تسرع بالخروج أيها الوالد ! ولا يغضبك ماقالت الفتاة . فعلىّ وحدى يقع إثم كل هذا الاضطراب ، وقد زاد الصديق الفاضل الموقف حرجا ، على خلاف ما كنت أنتظر منه . فتكلم الآن أيها السيد الجليل . فاليك أكِل هذا الأمر كله . لا تزد ما نحن فيه من آلام ومخاوف . بل اكشف القناع عن كل شيء . وإلا فلن أستطيع فى المستقبل أن أجلك وأعزك . اذا كنت الآن تسلك طريق المكر ، بدلا من أن تصرف الأمور بما عهدناه فيك من عقل ومن حكمة . »

هنالك تبسم القسيس الجليل ضاحكا وقال : « لقد كان من العقل وقد كان من الحكمة أن استدرجت الفتاة ، حتى أدلت بذلك الاعتراف البديع ، وأظهرت من سرها ما كان خافيا . ألم يكن من نتيجة هذا أن استحالت همومك فرحاً وسرورا ؟ فالآن لم يبق إلا أن تدلى أنت لها بما عندك ، ولا حاجة بك لأن يعينك فى هذا ثالث . »

فتقدم هرمن الى الفتاة وقال لها فى لطف وفى رفق : « لا تندمى على ما أذريته من الدموع ، وما قد أحسست من ألم طارئ سرعان مازول . فقد كان فى هذا إتمامٌ لسعادتى ؛ وأرجو أن يكون فيه إتمام سعادتك أيضا .

« إننى ما ذهبت الى الينبوع لكى أسأل الفتاة الغريبة أن تكون عندنا خادما . بل ذهبت الى هنالك لكى أنشد حبك . ولكنى ، واأسفاه ! لم تستطع عيناى اللتان أغمضهما الحياء ، أن تبصرا أين يميل بك الهوى . وأين يدفعك قلبك . فلم تر العينان منك إلا الصداقة والأدب ، حينما كنت تحيينى فى مرآة ذلك الينبوع الصافى . ولقد كان فى قبولك أن تصحبينى الى المنزل نصف سعادتى المنشودة : والآن قد أكملت على النعمة ،

فبوركت وحييت ! »

هنالك نظرت اليه الفتاة وقد بلغ التأثر منها صميم القلب . فلم تمانعه حين تقدم اليها ليضمها ويلثمها . فقد كان فى هذا بلوغ ذروة السرور، وضمان لسعادة العمر التى ليس وراءها سعادة .

وقد أفهم القسيس الآخرين حقيقة الموقف لكن الفتاة لم يكفها هذا بل تقدمت الى الوالد ، فى أدب وفى ظرف ، وأكبت على يده فقبلتها رغم ممانعته . وقالت له : « إنك بما طُبعت عليه من عدل وانصاف ستعفو عن هذه الفتاة ، التى أذهلها ماسمعت وما رأت ، فجعلت تبكى بكاء الألم ، ثم أخذت تذرف دموع الفرح ، فاصفح عما رأيت منها فى كلا الحالين ، وائذن لى بأن أنعم بكل ما أنا فيه الآن من بهجة وسرور ، وليكن ذلك الكدر الأول ، الذى كان اضطرابى بعض أسبابه : ليكن الأول والأخير ، وأما ما تعهدت الخادم المخلصة بأن تؤديه من خدمة ورعاية ، فهذا كله ستؤديه الكنَّة الأمينة . »

فعانقها الوالد متأثراً وهو يخفى دمعه ، وتقدمت الأم على مهل ، وقبلتها فى عطف وحنان ، وأخذت يدها تصافحها والدمع يتساقط من عيونهما دون أن يتحرك اللسان بكلمة .

هنالك تقدم القسيس الصالح ، دون أن يضيع لحظة . فانتزع من يد الوالد خاتم الزواج — ولم يكن هذا بالشيء السهل . لأن الاصبع السمينة جعلت اخراج الخاتم شيئاً عسيرا — . ثم انتزع من إصبع الأم خاتمها . وعقد بالخاتمين خطبة الفتى والفتاة ، وقال : « ليكن من حظ هذين الخاتمين الذهبيين ، مرة أخرى . أن يعقدا رباطاً وثيقا . يعادل الرباط الأول قوة ومتانة ، إن هذا الفتى يحب هذه الفتاة حبا جما ، وهذه الفتاة قد أقرت بأنها تميل اليه . فأنا أعلن خطبتكما الآن . وأبارككما مدى الدهر . بموافقة الوالدين وشهادة صديقنا . »

وهنا انحنى الصيدلى ، وهو يدعو الدعوات الصالحة ، ولكن لم يفته أن رأى عند ما ألبس رجل الدين الفتاة الخاتم ، أن فى إصبعها خاتماً آخر فأدهشه أن رآه الآن كما رآه هرمن من قبل لدى البئر ، فأثار همومه ، فقال الصيدلى مازحاً متودداً : « هل هذه إذن هى الخطبة الثانية ؟ ومن يدرينا لعل العروس الأول أن يجيء الى المذبح فيقيم الموانع دون الزواج ؟ »

فقالت الفتاة : « دعونى أخصص لحظة لهذه الذكرى ، التى يثيرها هذا الخاتم : ذكرى الفتى الطاهر ، الذى وهبنى إياه ،

يوم ودعنى وسافر، ولم يؤب بعدها إلى وطنه . وكأنما كان عالما بما سوف يقع، حين قذف به إلى باريس حبه للحرية، وشغفه بأن يلعب دوره فى هذا العالم المتقلب المتحول. فكان نصيبه هناك السجن والموت . وقبيل سفره قال لى : « فى رعاية الله ! انى منطلق الساعة ، لأنى أرى كل شىء فى العالم قد تحرك مرة واحدة . وقد تقطعت بالناس الأسباب ، وان الشرائع الاساسية لأقوى الدول قد انفصمت عراها . وحيل بين المالك القديم وبين ما يملك . وبوعد ما بين الصديق والصديق . وافترق المحب عن الحبيب ، وهأنذا اغادرك هاهنا ، حيث أرجو أن ألقاك يوما ما . ومن يدرى ، فقد يكون هذا آخر حديث أتحدث به إليك . وما أصدق قولهم : إن الانسان فى هذه الدنيا فى دار غربة . . . ولم يكن هذا القول فى يوم أصدق منه فى يومنا هذا . فقد أصبحنا وليست الأرض ملكا لنا ؛ وكنوزها الغالية ذاهبة أدراج الرياح . والذهب والفضة قد فقدا ما كان لهما من حرمة وتقديس ، واستحالا الى صورة غير صورتهما الأولى . وهكذا أصبح كل شىء فى اضطراب وفى حركة ، كأنما يريد هذا العالم القائم أن يتحلل

ويتفكك — راجعا القهقرى — وسط الفوضى والظلام القاتم ، لكى يلبس بعد ذلك ثوبا جديدا .

فأخلصى لى الحب : وان قُدِّر لنا أن نلتقى فوق أنقاض هذا العالم ، فسنلتقى كشخصين جديدين ، قد كوّنا تكوينا جديدا ، وأصبحا حرّين طليقين ، لا يخضعان لصروف الأقدار . ولعمرى كيف يقبل التقيد بقيد من استطاع أن يعيش فى هذا الزمن العصيب ثم يخرج منه حيا ؟ .

أما اذا شاء القدر ألا يكون لقاء سعيد بعد هذه المحن والأخطار . وأن لن يتاح لنا أن نتعانق فى سرور مرة أخرى ، عند ذلك فاحفظى ذكراى . واجعلى صورتى الخافقة أمام خاطرك ، لعل فى هذا ما يبعث فى صدرك الهدوء والجلد ، فلا يهمك بعدها أنزلت بك الكوارث أم غمرتك السعادة .

واذا استهواك منزل جديد ، وعلاقة جديدة ، فانعمى شاكرة بما أعدته لك الأقدار ، وأخلصى الحب لمن يحبك ، وقابلى الاحسان بالحمد والشكر . لكن حذار أن تسرفى فى الحب ، خشية أن تحل كارثة جديدة فيؤودك وقع المصاب المزدوج .

بورك لك فى أيامك . ولكن حذار أن تنظرى الى الحياة إلا كمتاع من الأمتعة . وليس كل متاع إلا خدعة وغرورا(١) .»

تلك كانت الوصية التى أوصانى بها الفتى ذو النبل. ولم يعد بعدها إلى . وفى هذه الفترة فقدت كل شىء . وذكرت ألف مرة مقاله هذا وما أنذرنى به ، والآن أيضا أذكر عبارته ، إذ أرى الحب قد هيأ لى هنا سعادة جديدة . وأرى الأمل الجميل ماثلا أمامى باسم الثغر .

« أعف عنى أيها الصديق الهمام ، إذا كنت أرتعد الساعة وأنا ممسكة بذراعك ، فان الملاح حين يضع رجله فوق أديم الثرى ، بعد الذى عاناه فى أسفاره ، يحس بالأرض تخفق وتهتز تحت رجليه ، مهما كانت ثابتة راسخة . »

هكذا تكلمت الفتاة ، ثم ضمت الخاتمين أحدهما إلى الآخر . فأخذ هرمن يتكلم بصوت فيه رقة النبل وشهامة الرجولة ، فقال : « أى دروتيه ! لئن كانت الكارثة شديدة فادحة ، فلتكن الرابطة التى تجمعنا اليوم أقوى وأشد . يجب أن نثبت وأن نصمد للحوادث ، وأن نحتفظ بأنفسنا وبما ملكت

---

(١) ليس مجرد صدفة أن يكون هنالك شبه بين هذه العبارة وبين الآية (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فان جوته كان يعرف القرآن ويتمثل ببعض من آياته .

ايماننا . فان الرجل الذى يتزعزع ويضطرب فى هذه الأوقات المزعزعة ، انمـا يزيد الخطب هولا واستفحالا ، أما الذى يثبت ويدأب ، فانه سرعان ما يلم شعث هذا العالم .

« وما ينبغى للألمـانى أن يحاول نشر تلك الحركة الفظيعة فى بلاده ، وأن يتردد من تجربة الى تجربة ، إن لنا مبادئنا وسننا فلنذكرها للناس صراحة ولنعلنها لهم ، ان الشعوب التى تثبت على مبادئها ، والتى تجاهد فى سبيل الله وفى الذود عن الشرائع ، وفى حماية الآباء والنساء والبنين ، أولئك يمدحهم الناس جميعاً ، وان كان نصيبهم فى الحرب الهزيمة .

« اليوم قد أصبحت لى يادروتيه ! واليوم أصبح كل شىء أملكه أعز على ممـا كان قبلا ، فانى الآن لا أحافظ عليه أو أنعم به فى حزن واهتمام ، بل فى بسالة وقوة ، ولئن تهـددنا العدو المغير ، فى العاجل أو فى الآجل ، فلتـكونى أنت أول من يقلدنى سلاحى ويعـدنى للقتال ؛ ولعلى أنك خير من يرعى الدار ويرعى الوالدين الحبيبين ، فانى سأعرض صدرى آمناً مطمئنا للاعـداء . ومتى أصبح جميع الناس يرون رأيى ، فهنالك تقف القوة أمام القوة ، وننعم كلنا بنعمة السلام . »

Hermann und Dorothea

VON

GOETHE

ARABISCH VON

M. AWAD

Bibliotheca Alexandrina
0695557

...aruk ...
K...
1933